ذكر مزايا النيل

قال التيفاشى: اتفق العلماء على أن النيل أشرف الأنهار فى الأرض لأسباب، منها:

عموم نفعه، فإنه لا يعلم نهر من الأنهار فى جميع الأرض المعمورة يسقى ما يسقيه النيل.

ومنها: الاكتفاء بسقيه، فإنه يزرع عليه بغير نضوبة، ثم لا يسقى الزرع حتى يبلغ منتهاه، ولا يعلم ذلك فى نهر سواه.

ومنها: أن ماءه أصح المياه وأعدلها وأعذبها وأفضلها.

ومنها: مخالفته لجميع أنهار الأرض فى خصال هى منافع فيه ومضار فى غيره.

ومنها: أنه يزيد عند نقص سائر المياه وينقص عند زيادتها، وذلك أوان الحاجة إليه.

ومنها: أنه يأتى أرض مصر فى أوان اشتداد القيظ والحر ويبس الهواء وجفاف الأرض، فيبل الأرض ويرطب الهواء ويعدل الفصل تعديلا زائدا.

ومنها: أن كل نهر من الأنهار العظام وإن كانت فيه منافع فلا بد أن يتبعها مضار فى أوان طغيانه بإفساد لما يليه ببعض [1] لما يجاوره، والنيل موزون على ديار مصر بوزن معلوم وتقدير مرسوم، لا يزيد عليها ولا يخرج عن حده ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ 1.

---

(١) فى الأصل: ينقص.

---

1 سورة يس، الآية ٣٨.

ومنها: أن المعهود فى سائر الأنهار أن تأتى من جهة المشرق إلى جهة المغرب، وهو يأتى من جهة المغرب إلى جهة [1] الشمال، فيكون فعل الشمس فيه دائما، وأثرها فى إصلاحه متصلا متلازما، وفى ذلك يقول الشاعر:

مصر ومصر ماؤها عجيب ونهرها يجرى به الجنوب

ومنها: أن كل (نهر من) [2] الأنهار يوقف على منبعه وأصله، والنيل لا يوقف له على أصل منبع، وليس فى الدنيا نهر يصب فى بحر الصين والهند والروم غيره. وليس فى الدنيا نهر يزيد ثم يقف ثم ينقص ثم ينصب على الترتيب والتدريج غيره. وليس فى الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل، ولا يجبى من خراج 1 غلة زرعه ما يجبى من خراج غلة زرع النيل.

وقال صاحب مباهج الفكر: النيل أخف المياه وأحلاها وأرواها وأمرؤها [3] وأعمها نفعا وأكثرها خراجا.

قال: يحكى أنه جبى فى أيام كيغاوس أحد ملوك القبط الأول مائة ألف ألف وثلاثون ألف ألف دينار، ويقال: إن كل دينار عشرة مثاقيل من مثاقيلنا الإسلامية. وجباه عزيز مصر مائة ألف ألف دينار. وجباه عمرو بن العاص اثنى عشر ألف ألف دينار، وجباه عبد الله بن أبى سرح أربعة عشر ألف ألف دينار. ثم رذل إلى أن جبى أيام جوهر القائد ثلاثة آلاف ألف ومائتى ألف ألف دينار.

وسبب تقهقره أن الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان فى الرجال الموكلين بحفر خلجه وإصلاح جسوره ورم قناطره وسد ترعه وقطع القصب وإزالة الحلفاء، وكانوا مائة ألف وعشرين ألف رجل، مرتبين على كور مصر سبعين ألفا للصعيد، وخمسين ألفا لأسفل الأرض.

---

(١) زاد بعدها فى ب: المشرق.

(٢) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٣) هذه اللفظة ليست فى ج. وهى فى ب: وأرواها.

---

1 الخراج: شىء يخرجه القوم فى السنة من مالهم بقدر معلوم.

ويحكى أنها مسحت أيام هشام بن عبد الملك فكان ما يركبه الماء مائة ألف ألف فدان، والفدان أربعمائة قصبة، والقصبة عشرة أذرع، وأما أحمد بن المدبر فإنه اعتبر ما يصلح للزرع بمصر فى وقت ولايته فوجده أربعة وعشرين ألف ألف فدان، والباقى قد استبحر وتلف، واعتبر مدة الحرث فوجده ستين يوما، والحراث الواحد يحرث خمسين فدانا، فكانت محتاجة إلى أربعمائة ألف وأربعين ألف حراث.

وقال: ابن دحية: جبيت مصر فى أيام الفراعنة بسبعين [1] ألف ألف دينار بالدينار الفرعونى وهو ثلاث مثاقيل من مثاقيلنا الآن.

(وقال ابن زولاق: قال أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز قاضى العراق: سألت محمد بن المدبر عن مصر. قال: كشفتها فوجدت غامرها 1 أضعاف عامرها، ولو عمرها السلطان لوفت له بخراج الدنيا) [2].

قال: وقلت لبعض ولاة مصر: متى عقدت مصر تسعين ألف ألف دينار ؟ قال: فى الوقت الذى أرسل فرعون بويبة [3] قمح إلى أسفل الأرض والصعيد فلم يوجد لها موضع تبذر فيه لشغل سائر البلدان بالزرع.

قال أهل التاريخ: كان فرعون إذا كمل التخضير فى كل سنة ينفذ مع قائدين [4] من قواده إردب قمح فيذهب أحدهما إلى أعلى مصر والآخر إلى أسفلها، فيتأمل القائد أرض كل قرية، فإن وجد موضعا بائرا عطلا قد أغفل بذره كتب إلى فرعون بذلك، وأعلمه اسم العامل على تلك الجهة، فإذا بلغ فرعون ذلك أمر بضرب عنق ذلك العامل، وأخذ ماله. فربما عاد القائدان، ولم يجدا موضعا لبذر الأردب لتكامل العمارة واستظهار الزراع.

---

(١) فى ب، ج: بتسعين.
(٢) ما بين القوسين ليس فى ب.
(٣) فى ب، ج: ويبة. والويبة: كيلتان. وقيل: الإردب ست ويبات.
(٤) فى الأصل: قائد. والصواب ما أثبتناه بدلالة ما بعده.

---

1 الغامر من الأرض: الخراب الذى ليس به زرع ولاغرس.

قال ابن عبد الحكم 1: وزعم بعض مشايخ أهل مصر أن الذى كان يعمل به بمصر على عهد ملوكها أنهم كانوا يقرون القرى فى أيدى أهلها، كل قرية بكراء 2 معلوم لا ينقص عليهم إلا فى كل أربع سنين من أجل الظمأ وتنقل اليسار. فإذا مضت أربع سنين نقص ذلك وعدل تعديلا جديدا، فيرفق بمن استحق الرفق ويزاد على من احتمل الزيادة، ولا يحمل عليهم من ذلك ما يشق عليهم، فإذا جبى الخراج (من قرى مصر) [1] وجمع كان للملك من ذلك الربع خالصا لنفسه يصنع فيه ما يريد، والربع الثانى لجنده ومن يقوى به على حربه وجباية خراجه ودفع عدوه، والربع الثالث فى مصلحة الأرض وما يحتاج إليه من جسورها وحفر خلجها وبناء قناطرها والقوة للمزارعين على زرعهم وعمارة أرضهم، والربع الرابع يخرج منه ربع ما يصيب كل قرية من خراجها فيدفن ذلك فيها لنائبة تنزل أو جائحة [2] بأهل القرية، فكانوا على ذلك، وهذا الربع الذى يدفن فى كل قرية من خراجها هى كنوز فرعون التى يتحدث الناس أنها ستظهر فيطلبها الذين يبتغون الكنوز.

وقال القاضى الفاضل: الذى استقر عليه خراج البلاد من إسكندرية إلى عيذاب إلى آخر الرابع والعشرين من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة - أربعة آلاف ألف وستمائة ألف وثلاثة وخمسون ألف دينار، من ذلك رزق القضاة ومشايخ العلم سبعة آلاف دينار وأربعمائة دينار، والأمراء والأجناد والمقطعون مائة ألف وخمسون ألف دينار، والكتابية خمسة وعشرون ألفا وأربعمائة دينار.

*** عود وانعطاف إلى مزايا النيل:**

قال الرئيس أبو على بن سينا: أفرط [3] قوم فى مدح النيل إفراطا شديدا، وأجمعوا

---

(١) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٢) فى ب، ج: حائجة.

(٣) فى النسخ الخطية: أفرد. وما أثبتناه موافق لما بعده.

---

1 فتوح مصر وأخبارها، ص ٩٦.

2 بكراء: أى بأجرة.

على محامده فى أربعة: بعد منبعه، وطيب مسلكه، وغمورته، وأخذه من الجنوب إلى الشمال. فأخذه عن الجنوب إلى الشمال ملطف لما يجرى فيه من المياه. وأما غمورته فيشاركه فيها غيره، وأما مسلكه فالمياه التى تكون طينية المسيل خير من المياه التى تجرى على الأحجار، فإن الطين ينقى الماء ويأخذ منه المزوجات الغريبة ويروقه، والحجارة لا تفعل ذلك، لكنه يجب أن يكون طين مسيلة حرا لا حمأة 1 ولا سبخة 2 ولا غير ذلك.

فإن اتفق أن يكون هذا الماء غمرا شديد الجرية يستحيل بكثرته ما يخالطه فى طبيعته مكشوفا للشمس والرياح، وكان يأخذ إلى الشمس فى جريانه فيجرى إلى المشرق - كان أفضل، لا سيما إذا بعد جدا من مبدئه، ويليه ما يتوجه إلى الشمال والمتوجه إلى المغرب والجنوب ودنا، خصوصا عند هبوب ريح الجنوب.

والذى ينحدر من مواضع عالية أفضل [1]، لا سيما إن كان خفيف الوزن سريع البرودة والسخونة.

وبعد المنبع يوجب لطافة الماء بسبب كثرة حركته. هذا خلاصة ما ذكر ابن سينا فى صفات المياه الفاضلة.

قال المقريزى 3: وكلها قد اجتمعت فى ماء النيل، فإنه بعيد المنبع على ما تقدم ذكره، ويمر على أراضى حرة، ولا يغلب على تربة ما يمر به شىء من الأحوال والكيفيات الردية كمعادن النفط والشب والكباريت ونحوها، بل يمر على الأراضى التى تنبت الذهب، (بدليل ما يظهر فى الشطوط من قراضات الذهب.

---

(١) هذه اللفظة ليست فى ب، ج.

---

1 الحمأة: الطين الأسود المنتن.

2 السبخة: أرض ذات ملح ونز. والجمع سباخ.

3 الخطط (١/ ٦٢).

قال: وقد عاين قوم تصويل 1 الذهب) [1] من الرمل المأخوذ من شطوط النيل فربحوا منه مالا، وفضيلة كون الذهب فى الماء لا تنكر، ثم إنه فى جريانه أبدا مكشوف الشمس والرياح، وطينه من طين مسيل مياه مجتمعة من أمطار تمر على أراضى حرة، وهو شديد الغمورة والجريان، وانحداره من علو فإن الجنوب مرتفع عن الشمال، لا سيما إذا صار إلى الجنادل انحط من أعلى جبل مرتفع إلى وادى مصر، ويمر من الجنوب إلى الشمال، فيستقبله ريح الشمال الطيبة دائما. وهو خفيف الوزن، فقد اعتبر ذلك غير مرة مع غيره من [2] المياه فخف عنها فى الوزن. وهو غاية فى عذوبة الطعم وحسن التأثير فى هضم الغذاء وانحداره عن المعدة بحيث إنه يحدث بعد شربه جشاء 2.

قال: وهذه صفات إن كنت ممن قد مارس العلم الطبيعى وعرف الطب فإنه يعظم عندك قدر ماء النيل، ويتبين لك غزارة نفعه وكثرة محاسنه.

ويقال: إن ذا القرنين كتب كتابا فيه ما شاهده من عجائب الدنيا فضمنه كل عجيبة، ثم قال فى آخره: وليس ذلك بعجب، (ولكن العجب) [3] نيل مصر.

وقال بعض الحكماء: لولا ما جعل الله فى نيل مصر من حكمة الزيادة فى زمن الصيف على التدريج حتى يتكامل رى البلاد، وهبوط الماء عنها عند بدء[4] الزراعة - لفسد إقليم مصر وتعذر سكناه؛ لأنه ليس فيه أمطار كافية ولا عيون جارية تعم [5] أرضه.

---

(١) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٢) فى الأصل: مع.

(٣) ما بين القوسين ليس فى ب.

(٤) فى ج: هبوط.

(٥) فى الأصل: كافية. وما أثبتناه من النسخ الأخرى، وهو الموافق لما فى الخطط للمقريزى (١/ ٦٢).

1 تصويل الذهب من الرمل: أى: تخليصه وتنقيته.

2 الجشاء: صوت يخرج من الفم عند امتلاء المعدة.

وفى كتاب تقويم البلدان للملك المؤيد 1 إسماعيل والأفضل على بن المظفر تقى الدين محمود بن المنصور محمد بن المعظم عمر بن شاهنشاه بن أيوب: نيل مصر ليس له نظير فى الوجود، وقد وصفه ابن سينا فقال: قد انفرد بثلاث صفات عن سائر أنهار الأرض، أحدها: أنه أطول أنهار الأرض، و ذلك يستلزم لطافته بسبب كثرة الجريان. والثانى: أنه يجرى بين رمال وصخور فيسلم عن الحمأة ونحوها الذى لا يكاد يخلو منه نهر. الثالث: أن الحجر فيه لا يخضر كما يخضر فى غيره.

وفى شرح كتاب أبقراط: فإن قيل كيف صار ماء النيل يسيل من موضع بعيد ويحفظ جودته ولا يتغير ؟

قلنا: إن العين التى يخرج منها فى سمت ناحية المشرق. وآخرون يقولون: إن الأرض التى يمر عليها ذلك الماء طينة زكية عذبة، فصار لذلك أكثر إثباتا للأشياء وأخصب وأغذى من المياه كلها.

وقال الصلاح الصفدى فى كتاب فض الختام عن التورية [1] والاستخدام: أما أهل مصر فقد شربوا ماء النيل وهو أحد أنهار الجنة، وترشفوا منه حلاوة لا تكون فى حشا النظر مستجنة، كما قال فيه بعض واصفيه: كأنه طحينة وماؤه مثل العسل، ومن عذبت [2] قطرات مياههم لطفت كلمات شفاههم. وإذا كانوا قد نشبوا [3] فى حلية الحلاوة سرى فى المجاورة طلية الطلاوة 2 كما قال فيهم على بن سعيد المغربى:

أيا ساكنى مصر غدا النيل جاركم فأكسبكم تلك الحلاوة فى الشعر

---

(١) فى الأصل: التوريت. وجاء فى هامش الأصل على الصحيح. وفى ج: التوراة.
(٢) هذه اللفظة ليست فى ب، ج.
(٣) فى ب، ج: نشأوا.

---

1 هو إسماعيل بن على بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب المعروف بالملك المؤيد، صاحب حماه، مؤرخ جغرافى، قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين، ونظم الشعر وليس بشاعر. توفى سنة ٧٣٢ هـ.

2 الطلاوة: بتثليث الطاء، الحسن والرونق.

وكان بتلك الأرض سحر وما بقى سوى أثر يبدو على النظم والنثر

قال: والأوصاف المحمودة التى شرطها ابن سينا وغيره من الحكماء لا تجتمع إلا فى النيل، وزعم أهل التجارب أنه من أقام بمصر سنة وجد فى طباعه وأخلاقه رقة وحسنا.

قال: وإذا سلكت محجة الإنصاف، وظهرت حجة الحق التى هى أكمل الأوصاف، وجدت شعر الديار المصرية فى هذا النوع المخصوص أجد [1] وأجود، ومتكلمهم إذا قام بالتورية أقعد، ومقاصدهم فى ذلك أسعف وأسعد. انتهى.

(١) فى ب: أحمد.

ذكر عجائب النيل

(التمساح):

قال صاحب مرآة الزمان: ذكر أحمد بن بختيار أن بالنيل عجائب منها: التمساح، ولا يوجد إلا فيه، ويسمى فى مصر التمساح، وفى بلاد النوبة الورل، ووراء النوبة الشوشار.

قال: والتمساح لا دبر له، وما أكله يتكون فى بطنه دودا، فإذا أذاه خرج إلى البرية فينقض عليه طائر فيأكل ما بين أسنانه وما يظهر من الدود، وربما يطبق عليه التمساح فيبلعه.

وذكر ابن حوقل أن بنيل مصر أماكن لا يضر التمساح فيها كعدوة بوصير والفسطاط.

وقال القزوينى فى عجائب المخلوقات: التمساح حيوان على صورة الضب من أعجب حيوان الماء، له فم واسع، له ستون نابا فى فكه الأعلى وأربعون [1] نابا فى فكه الأسفل، وبين كل نابين سن صغيرة مربعة يدخل بعضها فى بعض عند الانطباق، ولسان طويل، وظهر كظهر السلحفاة، ولا يعمل فيه الحديد، وله أربعة أرجل، وذنب طويل، ورأسه ذراعان وغاية طوله ثمانية أذرع، يحرك فكه الأعلى عند المضغ بخلاف سائر الحيوانات، ولا يقدر على أن يلتوى، ولا أن ينقلب؛ لأنه ليس لظهره خرزات، بل ظهره قطعة واحدة، وهو كريه المنظر جدا، كثير العدوان، يلتقم

(١) فى الأصل: أربعين. والوجه ما أثبتناه من بقية النسخ.

الآدمى والشاة، ويقتل الخيل والجمال، ولا يوجد إلا فى النيل ونهر الهند [1]، وإذا رأى إنسانا على طرق الماء يمشى تحت الماء حتى يقرب منه، ثم يثب وثبة واحدة، ويبيض كالطيور، ويشم من بيضه رائحة المسك، وزبله يخرج من فيه إذ لا منفذ له، فإذا أكل يبقى فى خلال أسنانه يتولد منه الدود، فيخرج من الماء ويفتح فاه مستقبل الشمس، فيأتيه طائر مثل الطيوطرى ويدخل فيه ويلتقط ما فى خلال أسنانه، فإذا التمساح علم أنه نقى خلل أسنانه أطبق فاه على الطائر ليأكله، وقد خلق الله سبحانه وتعالى على رأس ذلك الطائر عظما أحد من الإبرة، فيضرب به حنك التمساح فيرفع حنكه فيطير الطائر، وإذا انقلب التمساح لم يستطع أن يتحرك. وإذا أراد السفاد خرج من النيل وأنثاه معه فألقى الأنثى على ظهرها، فإذا قضى وطره قلبها، فإن تركها صيدت فإنها لا تقدر أن تنقلب.

قال: ومن خواصه: زعموا أن عينه تشد على صاحب الرمد يسكن وجعه فى الحال، اليمنى على اليمنى واليسرى على اليسرى، وسنه الأيمن يعلق على الإنسان يزيد فى الباه 1، وأول سن من فكه الأيسر يعلق على صاحب القشعريرة يذهب فى الحال، ومرارته يكتحل بها تزيل بياض العين، وشحمه يجعل ضمادا على عضته فإنه نافع فى الحال، وكبده يدخن بها على المصروع يزول ما به، وزبله يزيل بياض العين اكتحالا، وجلده يشد على جبهة الكبش يغلب فى النطاح. انتهى.

وقال المسعودى: التمساح آفته من دويبة [2] تكون فى سواحل النيل وجزائره، وهو أن التمساح لا دبر له، وما يأكله يتكون فى بطنه دودا، فإذا خاف أذاه خرج إلى البر فاستلقى على قفاه فينقض عليه طير الماء وقد اعتاد منه ذلك، فيأكل ما يظهر من جوفه (من ذلك الدود العظيم، وتكون تلك الدويبة على جسر [3] جوفه، ثم يفرق

---

(١) فى ب، ج: السند.

(٢) فى الأصل: دويبته.

(٣) هذه اللفظة ليست فى ج.

---

1 الباه: قوة الجماع.

جوفه) [1] ويخرج، وربما قتل نفسه قبل أن يخرج فيخرج بعد موته، وهذه الدويبة تكون نحو الذراع على صورة ابن عرس ذات قوائم شتى ومخالب.

ويقال: إنه كان بجبال فسطاط مصر طلسم معمول لها، وكان التمساح لا يستطيع المرور حوله، بل كان إذا بلغ حدوده انقلب واستلقى على ظهره فتعبث به الصبيان إلى أن يجاوز المدينة، ثم يعود له فيستوى ويرد إلى طباعه، ثم إن هذا الطلسم كسر وبطل عمله.

ويقال: إن التمساح يبيض كبيض الأوز، وربما تولد منه جرادين صغار ثم تكبر حتى يبلغ طولها عشرة أذرع، وتزداد طولا كلما عمرت.

والتمساح يجامع ستين مرة فى حركة واحدة ومحل واحد، وسنه اليسرى مانعة للنافض.

وقال ابن البيطار 1: التمساح فى النيل كثير، ووجد فى نهر مهران.

وقال ابن زهير: كل حيوان يحرك فكه الأسفل إذا أكل إلا التمساح، فإنه يحرك فكه الأعلى دون الأسفل، وإذا عقر [2] التمساح إنسانا فوضع على العضة شحم التمساح برئ من ساعته، وشحمه إذا عجن بسمن وجعل منه فتيلة فأسرج فى نهر أو أجمة - لم تنق ضفادعها ما دامت تقد، وإن لطخ بشحمته جبهة كبش قهر كل كبش يناطحه وهرب منه، وكبده يبخر به المصروع يبرأ، وإن قلعت عيناه وهو حى وعلقت على من به جذام أوقفه ولم يزد [3]، وإن حملت بيضته اليمنى على رجل من الجانب الأيمن زاد فى جماعه، وعينه اليمنى (لمن يشتكى عينه اليمنى واليسرى

---

(١) ما بين القوسين ليس فى ب.

(٢) فى ب، ج: عقل.

(٣) فى الأصل: يزل. وما أثبتناه من النسخ الأخرى أوفق بالسياق.

---

1 هو أبو محمد، ضياء الدين، عبد الله بن أحمد المالقى، المعروف بابن البيطار، إمام النباتيين وعلماء الأعشاب، ولد فى مالقة وتعلم الطب، وكان حجة فى معرفة أنواع النبات وتحقيق أسمائه وصفاته وأماكنه، وكان رئيس العشابين فى الديار المصرية. توفى بدمشق سنة ٦٤٦ هـ.

لليسرى) [1]، وشحمه إذا أذيب بدهن ورد نفع من وجع الصلب والكليتين وزاد فى الباه. وإذا أخذ دم التمساح وخلط به إهليلج 1 وأملج 2 وطلى به على الوضح 3 أذهبه وغير لونه، وإذا طلى على الجبهة والصدغين نفع من وجع الشقيقة 4. وإذا أكل لحمه أسفيد باجاه (كذا) سمن البدن النحيف، وإذا قطر [2] شحمه بعد أن يذاب فى الأذن الوجيعة منعها [3]، وإن أدمن تقطيره فى الأذن نفع من الصمم، وإذا ادهن به صاحب حمى الربع 5 سكنت عنه، ولحمه ردىء الكيموس 6، وإذا طيف بجلده حول قرية ثم علق على سطح دهليز لم يقع البرد فى تلك القرية.

قال صاحب سجع الهديل: دخل أبو نواس مصر، فركب ذات يوم النيل متنزها، فأراد السباحة فى موضع منه فحذر من التمساح؛ فقال:

أضمرت للنيل هجرانا ومقلية ... إذ مقلت مقلتى التمساح فى النيل

فمن رأى النيل رأى العين من كثب ... فما أرى النيل إلا فى البواقيل [4]

*** (السقنقور) [5]:**

وقال صاحب مرآة الزمان: فى النيل السقنقور، وقيل إنه من نسل التمساح إذا

---

(١) جاء مكان ما بين القوسين فى الأصل: لم يشتك عينه اليسرى لم يشتك اليسرى.

(٢) هذه اللفظة ليست فى ب، وفى ج: طلى.

(٣) فى ج: أذهبها.

(٤) فى البيتين بالأصل تصحيف وتحريف أخرجهما عن دائرة الفهم، والتصويب من ديوان أبى نواس. البواقيل هى الجرار بلغة القبط واحدتها باقلة.

(٥) فى ب، ج: السنقور. وذلك فى المواضع التى ذكر فيها كلها.

---

1 الإهليلج: شجر ينبت فى الهند والصين، ثمره على هيئة حب الصنوبر الكبار.

2 أملج: مص.

3 الوضح: البياض من كل شىء. والمرا به هنا: البرص.

4 الشقيقة: ألم ينتشر فى نصف الرأس والوجه.

5 حمى الربع: هى التى تعرض للمريض يوما وتدعه يومين، ثم تعود إليه فى اليوم الرابع.

6 الكيموس: الخلاصة الغذائية.

وضعه خارج الماء، فما قصد الماء صار تمساحا، وما قصد البر صار سقنقورا، وله قضيبان كالضب.

وقال صاحب عجائب المخلوقات: السقنقور قال ابن سينا: إنه ورل 1 مائى يصاد فى نيل مصر. وقال غيره: إنه من نسل التمساح، وذكروا أنه إذا عض إنسانا فغسل الإنسان معضه بريقه قبل عوده إلى الماء مات العاض، وإن كان بعد عوده إلى الماء مات الإنسان، (وله قضيبان كالضب) [1]، ولحمه إذا أكل هيج قوة الباه، وشحمه يهيج الباه تهييجا لا يسكن إلا بحسو [2] مرق الخس، وحزرته الوسطى التى فى صلبه إذا علقها الإنسان على صلبه هيج الباه.

وقال ابن البيطار: للذكر من السقنقور إحليلان وللأنثى فرجان، والسقنقور يعض الإنسان، ويطلب الماء، فإن وجده دخل فيه، وإن لم يجده بال وتمرغ فى بوله، فإذا فعل ذلك مات المعضوض لوقته وسلم السقنقور، فإن اتفق أن سبق المعضوض إلى الماء فدخله قبل دخول السقنقور الماء، ويتمرغ فى بوله قبله - يموت السقنقور لوقته ويسلم المعضوض. والسقنقور يهيج السفاد [3] فى الربيع، ولحمه يهيج شهوة الجماع (ويزيد فى الإنعاظ 2) [4]، ولا يوافق استعماله [5] من مزاجه حار يابس، وإنما يوافق ذوى الأمزجة الباردة الرطبة. والقدر الذى يستعمل منه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل بحسب السن والمزاج والبلد والوقت، ولا يوجد السقنقور إلا فى بلد الفيوم خاصة.

---

(١) ما بين القوسين ليس فى ب، ج.

(٢) فى جـ: بحشو.

(٣) فى الأصل: الفساد. وهو تصحيف. والسفاد: الجماع.

(٤) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٥) زاد بعدها فى ب، ج: إلا. وهو خطأ لعدم اتساقه مع الجملة بعده.

---

1 الورل: حيوان من الزحافات أطول من الضب وأقصر من التمساح يكون فى البر والماء.

2 الإنعاظ: الشبق وانتشار الذكر.

(وقال صاحب مرآة الزمان: إنه يكون فى أسوان وفى حدودها) [1].

وفى (الخطط) 1 للمقريزى: أنه يتولد من السمك والتمساح، فلا يشاكل السمك لأن له يدين ورجلين، ولا يشاكل التمساح لأن له ذنبا أجرد أملس عريض غير مضرس، وذنب التمساح مسيف مضرس.

*** (الرعاد):**

قال المسعودى: فى نيل مصر عجائب كثيرة من الحيوانات، من ذلك السمك المعروف بالرعاد، وهى نحو الذراع، إذا وقعت فى شبكة الصياد أرعدت [2] يده وعضده فيعلم بوقوعها، فيبادر إلى إخراجها، ولو أمسكت بخشب أو قصب فعلت ذلك. وقد ذكرها جالينوس وقال: إن جعلت على رأس من به الصداع أو الشقيقة، وهى [3] فى الحياة - برئ من ساعته، وإذا أذيب بين مقعدة من انقلبت مقعدته وبرزت إلى خارج أصلحها بشرط كونه حيا فى الصورتين. قال ابن البيطار: إنما تنفع ما دام حيا.

قال بعضهم: الزيت الذى يطبخ به يسكن أوجاع المفاصل إذا دهنت به، وإذا علقت المرأة شيئا من الرعاد عليها لم يطق زوجها الصبر عنها، وكذلك إن علق منها الرجل عليه لم تكد المرأة تفارقه [4].

وقال المقريزى فى (الخطط) 2: نفعها فى البرء من الحمى إذا علقت على المحموم عجيب.

---

(١) ما بين القوسين ليس فى ب، ج.
(٢) فى الأصل: أرعضت.
(٣) هذه اللفظة ليست فى ب.
(٤) فى الأصل: فراقه.

---

1 (١/٦٦).
2 (١/٦٦).

وفى عجائب المخلوقات: الرعادة إذا قربت من المصروع [1] وهى حية أخدرته عن الحس، وإذا علقت المرأة منها شيئا على نفسها لم يقدر زوجها على فراقها.

وقال ابن المتوج: بمصر بقلة من مسها بيده ثم مس الرعاد لم يرعد.

ومن اللطائف قول الأديب شرف الدين البوصيرى 1 صاحب (البردة) فى زين الدين المحلى المعروف بالرعاد.

لقد عاب شعرى فى البرية شاعر ... ومن عاب أشعارى فلا بد أن يهجى

فشعرى بحر لا يرى فيه ضفدع ... ولا يسلك الرعاد (يوما له) [2] لجا

*** فرس البحر:**

قال صاحب مرآة الزمان: فى النيل سمكة على صورة الفرس، والمكان الذى تكون فيه لا يقربه تمساح.

وقال القزوينى فى عجائب المخلوقات: فرس الماء هو كفرس البر إلا أنه أكبر عرفا وذنبا وأحسن منه لونا، وحافره مشقوق كحافر بقر الوحش، وجثته دون فرس البر، فوق الحمار بقليل [3]، وربما يخرج هذا الفرس من الماء وينزو على فرس البر فيتولد منهما ولد فى غاية الجودة والحسن.

حكى أن الشيخ أبا القاسم عركان نزل على ماء ومعه حجرة 2، فخرج من الماء فرس أدهم عليه نقط بيض كالدراهم ونزا على حجرته، فولدت مهرا شبيها بالذكر عجيب الصورة، فلما كان ذلك الوقت عاد إلى ذلك المكان والحجرة والمهر معه

---

(١) فى ب: المروع.

(٢) فى ج: له يوما.

(٣) هذه اللفظة ليست فى الأصل.

---

1 هو أبو عبد الله شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى، كاتب شاعر متصوف، حسن الديباجة مليح المعانى، وأشهر شعره البردة والهمزية فى مدح رسول الله ﷺ. توفى بالإسكندرية سنة ٦٩٦ هـ.

2 الحجرة: أنثى الفرس.

طمعا فى مهر آخر، فخرج الفحل وشم مهره، ثم وثب فى الماء ووثب المهر بعده فكان الشيخ يعاود المكان بالحجرة.

وقال عمر بن سعد: فرس الماء يؤذن بطلوع النيل، فإنهم حيث وجدوا أثر رجله عرفوا أن ماء النيل يصل إلى ذلك الموضع، وسنه نافع لوجع البطن.

وذكروا أن السودان الساكنين بشاطئ النيل إذا أخذهم المغص يشدون السن على هذا العليل فيزول فى الحال، وعظامه تحرق وتخلط بشحمه ويضمد بها السرطان يردعه ويزيل أثره فى الحال، وخصيتاه تجففان وتحرق وتسحق [1] وتشرب لنهش الهوام، وجلده إن دفن وسط قرية لم يقع بها شىء من الآفات، ويحرق ويجعل على الورم فيسكن. انتهى.

وقال عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى فى كتاب (أخبار النوبة [2]): مسافة ما بين دنقلة إلى أول بلد علوة أكثر مما بين دنقلة وأسوان، وفى ذلك من القرى والضياع والجزائر والمواشى والنخل والشجر والمقل والزرع والكرم أضعاف ما فى الجانب (الذى يلى أرض الإسلام، وفى هذه الأماكن جزائر عظام مسيرة أيام فيها الجبال) [3] والوحش والسباع، ومفاوز (يخاف فيها العطش) [4]، والنيل ينعطف من هذه النواحى إلى مطلع الشمس وإلى مغربها مسافة أيام حتى يصير المصعد كالمنحدر، وفرس البحر يكثر فى هذا الموضع.

حدثنى ميمون صاحب (عهد علوة): أنه أحصى فى جزيرة دابة منها وهى من ذوات الشطوط فى خلق الفرس وغلظ الجاموس، قصيرة القوائم لها خف، وهى فى ألوان الخيل (بأعراف وآذان صغار كآذان الخيل وأعناقها، كذلك وأذنابها مثل أذناب الجواميس) [5]، ولها مخطم عظيم يظن الناظر أن عليها مخلاة، لها صهيل

---

(١) هذه اللفظة ليست فى ب، ج.

(٢) فى ب، ج: النبوه.

(٣) مابين القوسين ليس فى ب.

(٤) ما بين القوسين ليس فى النسخ الخطية، وما أثبتناه من الخطط للمقريزى (١/ ٦٥).

(٥) ما بين القوسين ليس فى ب، ج.

وأنياب، لا [1] يقوم حذاءها تمساح، وتعترض المركب عند الغضب فتغرقها، ورعيها فى البر [2] العشب، وجلدها فيه متانة [3] عظيمة يتخذ منه أتراس. انتهى.

وفى (الخطط) 1 للمقريزى: أنه يأكل التمساح أكلا ذريعا، يقوى عليه قوة ظاهرة. وقال المسعودى: الفرس الذى يكون فى نيل مصر إذا خرج من الماء وانتهى وطؤه إلى بعض المواضع من الأرض، علم أهل مصر أن النيل يزيد إلى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا مقصر عنه، لا يتخلف ذلك عندهم بطول العادات والتجارب. وفى ظهوره من الماء ضرر بأرباب الزرع، فإنه يرعاه ويرعى فى الليلة الواحدة شيئا كثيرا، فإذا رعى وشرب الماء قذف ما فى جوفه فى مواضع شتى، فينبت ذلك مرة ثانية، وإذا اتصل ضرره بأصحاب الزرع طرحوا له الترمس كثيرا جدا مفرقا، فيأكله ثم يعود إلى الماء، فإذا شرب ربى الترمس فى جوفه وانتفخ فيموت ويطفو على الماء، والموضع الذى يرى فيه لا يرى فيه تمساح، وهو على صورة الفرس إلا أن حوافره وذنبه بخلاف ذلك، وجبهته واسعة. انتهى.

قلت: قد ظهرت فرس بالنيل فى سنة أربع وتسعين [4] وثمانمائة، ورأيناها فى بحر الروضة، وأقامت أياما تظهر فاستبشروا بعلو النيل فى هذه السنة، وكان الأمر كذلك، فزاد النيل أصابع من عشرين، وثبت ثباتا جيدا.

*** (كلب الماء):**

قال فى عجائب المخلوقات: هو حيوان مشهور، يداه أقصر من رجليه، ذكروا أنه يلطخ بدنه بالطين ليحسبه التمساح طينا، ثم يدخل جوفه ويقطع أمعاءه فيأكلها، ثم يمزق بطنه ويخرج منه، وكذلك من كان معه شحم كلب الماء يأمن من التمساح.

---

(١) حرف النفى مثبت من الخطط (١/ ٦٥).

(٢) فى ب، ج: البحر.

(٣) فى الأصل: نتانة. والصواب ما أثبتناه لموافقته للسياق.

(٤) فى الأصل: وستين.

---

1 (١/ ٦٥).

وذكروا أن جندبيد ستر[1] خصية هذا الحيوان، وأن الصيادين إذا ظفروا به سلوا خصيته وسيبوه، فإن وقع فى الشبكة مرة أخرى استلقى ورفع رجليه يعلمهم أن خصيته ذهبت ليخلصه الصياد من الشبكة، ودماغه ينفع من ظلمة العين اكتحالا، ومرارته قدر عدسة منها سم قاتل، وخصيته تنفع فى نهش الهوام، وجلده يتخذ منه جورب يلبسه المنقرس[2] يزول عنه. انتهى.

* (**شيخ البحر**):

قال صاحب مرآة الزمان: فى النيل شيخ البحر، سمكة على صورة آدمى، وله لحية طويلة، ويكون بناحية دمياط، وهو مشئوم، فإذا رئى فى مكان دل على القحط والموت والفتن، ويقال: إن دمياط ما تنكب[3] حتى يظهر عندها.

---

(١) فى ب، ج: جندينه ستر. والجند بيد ستر: دواء يعالج به بعض الأمراض. انظر قانون الطب، لابن سينا (١/ ٤١٧).

(٢) فى ب: النقرس. والمنقرس: المصاب بمرض النقرس، وهو مرض مؤلم يحدث فى مفاصل القدم، خاصة فى إبهامها.

(٣) فى ج: تغلب.

ذكر المقياس

قال المقريزى فى (الخطط) 1: وبطرف الروضة المقياس الذى يقاس فيه ماء النيل الآن [1]، ويقال له: المقياس الهاشمى، وهو آخر مقياس بنى بديار مصر.

قال أبو عمرو الكندى: ورد كتاب الخليفة المتوكل على الله بابتناء المقياس الهاشمى للنيل، ويعزل النصارى عن قياسه، فجعل يزيد بن عبد الله بن دينار أمير مصر أبا الرداد المعلم، وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب الخراج سبعة دنانير، وذلك فى سنة سبع وأربعين ومائتين.

وعلامة وفاء النيل ستة عشر ذراعا أن يسبل ابن أبى الرداد قاضى البحر الستر الأسود الخليفتى على شباك المقياس هذا، فإذا شاهد الناس الستر قد أسبل تباشر الناس بالوفاء، واجتمعوا على العادة للفرجة من كل ناحية.

وما أحسن قول الأديب شهاب الدين أحمد بن العطار فى تهتك الناس يوم تخليق المقياس عند اجتماعهم:

تهتك الخلق للتخليق قلت لهم ... ما أحسن الستر قالوا العفو مأمول

ستر الإله علينا لا يزال فما ... أحلى تهتكنا والستر مسبول

---

(١) فى ب، ج: اليوم.

---

1 (١/٥٨).

وقال ابن عبد الحكم 1: كان أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام، ووضع مقياسا بمنف، ثم وضعت العجوز دلوكة بنت زباء مقياسا بأنصنا، وهو صغير الذرع، (ومقياسا بإخميم) [1].

ووضع عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان، وهو صغير.

ووضع أسامة بن زيد التنوخى فى خلافة الوليد مقياسا بالجزيرة وهى الروضة، وهو أكبرها.

حدثنا يحيى بن بكير قال: أدركت القياس يقيس فى مقياس منف، ويدخل بزيادته إلى الفسطاط. وهذا ما ذكره ابن عبد الحكم.

قال التيفاشى: ثم هدم المأمون مقياس الجزيرة، وأسسه ولم يتمه، فأتم المتوكل بناءه، وهو الموجود الآن.

وقال المسعودى: أول من عمل مقياسا لزيادة النيل حصليم ملك مصر، وكان [قبل] [2] وجود نوح عليه السلام، وإنما بعث نوح فى زمن الملك برصال [3] الذى ولى مصر بعد موت حصليم، وذلك أنه جمع أصحاب العلوم والهندسة، فعملوا له بيتا من رخام على حافة النيل، وجعل فى وسطه فسقية [4] من نحاس صغيرة فيها ماء موزون، وعلى حافة الفسقية [5] عقابان 2 من نحاس ذكر وأنثى، فإذا كان أول الشهر الذى يزيد فيه النيل فتح البيت، وجمع الكهان فيه بين يديه، وتكلموا بكلام

---

(١) ما بين القوسين ليس فى الأصل.
(٢) هذه اللفظة ليست فى النسخ الخطية، وأثبتناها من الخطط للمقريزى (١/ ٥٨) ليستقيم الكلام.
(٣) فى ب، ج: هوصال.
(٤) فى ب، ج: بركة.
(٥) فى ب، ج: البركة.

---

1 فتوح مصر، ص ٧١.
2 عقابان: مثنى عقاب: وهو طائر قوى المخالب له منقار قصير، حاد البصر. ولفظه مؤنث للذكر والأنثى.

لهم حتى يصفر أحد العقابين، فإن صفر الذكر كان الماء تاما، وإن صفر الأنثى كان الماء ناقصا. فيستعدون لذلك [1]. وهو الذى بنى القنطرة ببلاد النوبة على النيل.

وقال القضاعى: كان أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام، وضع مقياسا بمنف.

وقيل: إن النيل كان يقاس بأرض علوة إلى أن بنى مقياس منف، فكانت القبط تقيس عليه إلى أن بطل، وبنت العجوز مقياسا بأنصنا، وهو صغير الذرع، ومقياسا آخر بإخميم.

وقيل: إنهم كانوا يقيسون الماء قبل أن يوضع المقياس بالرصافة [2]، ولم يزل المقياس فيما مضى قبل الفتح بقيسارية (الأكسية، ومعالمه) [3] هناك إلى أن ابتنى المسلمون بين الحصن والبحر أبنيتهم الباقية.

وكان للروم أيضا مقياس بالقصر خلف الباب أثره قائم إلى اليوم، ثم بنى عمرو ابن العاص عند فتحه مصر مقياسا بأسوان، ثم بنى بموضع يقال له دندره، ثم بنى فى أيام معاوية مقياسا بأنصنا، فلم يزل يقاس عليه إلى أن بنى عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان وكانت منزله، وكان هذا المقياس صغير الذرع، فأما الكبير الذى بنى فى الجزيرة فالذى وضعه أسامة بن زيد التنوخى و (قيل: إنه كسر فيه ألفى إقنيز [4]، وهو الذى بنى بيت المال بمصر، ثم كتب أسامة بن زيد التنوخى) [5] عامل خراج مصر لسليمان بن عبد الملك ببطلانه، فكتب إليه سليمان أن يبنى مقياسا بالجزيرة، فبناه فى سنة سبع وتسعين من الهجرة، ثم بنى المتوكل فيها مقياسا فى أول سنة سبع وأربعين ومائتين.

---

(١) فى ب، ج: ذلك.

(٢) فى الخطط للمقريزى (١/ ٥٧): بالرصاصة.

(٣) فى الأصل: (الأسكية ومعللة).

(٤) فى الخطط (١/ ٥٧): أوقية. والأقنيز: وعاء ضخم.

(٥) مابين القوسين ليس فى الأصل.

وقدم من العراق محمد بن كثير الفرغانى المهندس فبنى بناءه، وذلك فى ولاية يزيد بن عبد الله، فجعل يزيد على المقياس أبا الرداد المعلم، واسمه عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن الرداد المؤدب، أصله من البصرة، وقدم مصر وحدث بها، فجعل على قياس النيل، وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب خراج مصر يومئذ سبعة دنانير فى كل شهر، فلم يزل من ذلك الوقت فى يد أبى الرداد وولده إلى اليوم.

وتوفى أبو الرداد سنة ست وستين ومائتين.

ثم ركب أحمد بن طولون سنة تسع وخمسين ومائتين ومعه أبو أيوب صاحب خراجه (والقاضى بكار بن قتيبة) [1]، فنظر إلى المقياس، وأمر بإصلاحه، وقدر له ألف دينار فعمر بها، وبنى الخازن فى الصناعة مقياسا، وأثره باق. انتهى.

وقال صاحب مرآة الزمان: المقياس الظاهر الآن بناه المأمون، وقيل: إنما بناه أسامة بن زيد التنوخى فى خلافة سليمان بن عبد الملك ودثر، فجدده المأمون، وبنى أحمد بن طولون مقياسين أحدهما بقوص وهو قائم اليوم، والآخر بالجزيرة وقد انهدم.

وقال غيره: كتب الخليفة جعفر المتوكل إلى مصر يأمر ببناء الجديد الهاشمى فى الجزيرة سنة سبع وأربعين ومائتين، وكان الذى يتولى أمر المقياس النصارى، فورد كتاب المتوكل على قاضى مصر بكار بن قتيبة بأن لا يتولى ذلك إلا مسلم يختاره، فاختار القاضى بكار لذلك أبا الرداد عبد الملك [2] بن عبد السلام المؤدب، فأقامه لمراعاة المقياس وأجرى عليه الرزق، وبقى ذلك فى ولده إلى اليوم.

---

(١) ما بين القوسين ليس فى ب، ج.

(٢) كذا بالنسخ الخطية، وقد سبق أن اسمه عبد الله. وهو الموافق لما فى الخطط للمقريزى (١/ ٥٨).

وقال ابن يونس 1 فى تاريخ [1] مصر: كان أصل أبى الرداد من البصرة، وقدم مصر وحدث بها، ومات سنة ست وستين ومائتين.

وقال القضاعى: وجدت فى رسالة منسوبة إلى الحسن بن محمد بن عبد المنعم قال: لما فتحت العرب مصر عرف عمر بن الخطاب ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن مده فى مقياس لهم فضلا عن تقاصره، وأن فرط الاستسعار يدعوهم إلى الاحتكار، ويدعو الاحتكار إلى تصاعد الأسعار بغير قحط، فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يسأله عن شرح الحال، فأجابه عمرو: "إنى وجدت ما يروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعا، والحد الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا، والنهايتين المخوفتين فى الزيادة والنقصان - وهما الظمأ والاستبحار - اثنى عشر ذراعا (فى النقصان وثمانية عشر ذراعا) [2] فى الزيادة". هذا والبلد فى ذلك الوقت [3] محفور [4] الأنهار معقود الجسور عندما تسلموه من القبط وخمير العمارة فيه. فاستشار عمر بن الخطاب على بن أبى طالب فى ذلك، فأمره أن يكتب إليه بأن يبنى مقياسا، وأن يضف [5] ذراعين على اثنى عشر ذراعا، وأن يقر ما بعدها على الأصل، وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر إصبعين. ففعل ذلك وبناه بحلوان. فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الإرجاف، وزال ما منه كان يخاف، بأن جعل الاثنى عشر ذراعا أربعة عشر ذراعا، لأن كل ذراع أربعة وعشرون أصبعا،

---

(١) هذه اللفظة ليست فى ب، ج.

(٢) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٣) هذه اللفظة ليست فى ب، ج.

(٤) فى ب: محضور.

(٥) كذا وردت بالنسخ المخطوطة. والوجه: يضيف، إذ لم يسبقها جازم.

---

1 هو أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفى، مؤرخ ومحدث، وهو والد العالم الفلكى ابن يونس، له تاريخان أحدهما كبير فى: أخبار مصر ورجالها، والثانى صغير فى: ذكر الغرباء الواردين على مصر. توفى سنة ٣٤٧ هـ.

فجعلها ثمانية وعشرين من أولها إلى الاثنى عشر يكون مبلغ الزيادة على الاثنى عشر ثمانية وأربعين أصبعا وهى الذراعان، وجعل الأربعة عشر ستة عشر، والستة عشر ثمانية عشر، والثمانية عشر عشرين ذراعا، وهى المستقرة الآن.

قال القضاعى: وقد فسد هذا فى وقتنا هذا لفساد الأنهار وانتقاض الأحوال، وشاهد ذلك أن المقاييس القديمة الصعيدية من أولها إلى آخرها أربعة وعشرون أصبعا كل ذراع.

والمقاييس الإسلامية على ما ذكر منها المقياس الذى بناه أسامة بن زيد بالجزيرة، وهو الذى هدمه الماء، وبنى المأمون آخر بأسفل الأرض بالسرودات [1]، وبنى المتوكل آخر بالجزيرة، وهو الذى يقاس عليه الماء الآن.

وقال ابن عفير عن القبط المتقدمين: إذا كان الماء فى اثنى عشر ذراعا من مسرى فهى سنة ماء وإلا فالماء ناقص، وإذا تم ستة عشر ذراعا قبل النوروز فالماء يتم.

وقال أبو [2] الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى: يبتدئ النيل بالزيادة فى شهر أبيب، والمصريون يقولون: إذا دخل أبيب كان للماء دبيب. وعند ابتدائه فى الزيادة تتغير جميع كيفياته وتفسد، والسبب فى ذلك مروره بنقائع مياه آجنة يخالطها فيجتلبها معه إلى غير ذلك مما يحتمله. فإذا بلغ الماء خمسة عشر ذراعا وزاد فى السادس عشر أصبعا واحدا كسر الخليج، ولكسره يوم معدود ومقام مشهود ومجمع خاص يحضره العام والخاص، وإذا كسر فتحت الترع، وهى فوهات الخلجان، ففاض الماء وساح، وعمر القيعان والبطاح، وانضم الناس إلى عالى مساكنهم من المنازل والضياع، وهى على آكام وربى لا ينتهى الماء إليها ولا يتسلط عليها، فتعود أرض مصر بأسرها عند ذلك بحرا غامرا لما بين جبليها، ريثما [3] يبلغ الحد المحدود فى مشيئة الله تعالى، وأكثر ذلك يحوم حول ثمانية عشر ذراعا، يأخذ

---

(١) فى ب، ج: بالرودات.

(٢) فى الأصل: ابن.

(٣) فى الأصل، ب: ربما وفى جـ: وربما. والمثبت من الخطط (١/ ٥٦).

عائدا فى نصيبه [1] إلى مجرى النيل ويسير، فينضب أولا عما كان من الأرض عاليا، ويصير فيما كان منها متطامنا، فيترك كل قرارة كالدرهم، ويغادر كل ترعة كالبرد المسهم.

وقال ابن ميسر فى تاريخ مصر: نقلت من كتاب الديارات [2] المصرية: أن الخليفة الآمر بأحكام الله رتب فى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قاضى القضاة أبا عبد الله محمد بن ميسر (مشاوفا على ثقة الدولة ابن أبى الرداد فى قياس الماء وعمارة المقياس ومصالحه) [3]، فبقى مستمرا فيها إلى أن قتل ابن ميسر فلم ينظر بعده أحدا على هذه الجهة، واستمر ابن أبى الرداد بمفردته، وأطلق له فى كل سنة مائة قنطار جير لعمارة المكان.

وقال المقريزى فى (الخطط) 1: كان للمقياس فى الدولة الفاطمية رسوم منها لكنس مجارى الماء خمسون دينارا فى كل سنة تطلق لابن أبى الرداد.

قال: والمقياس عمود رخام أبيض مثمن فى موضع ينحصر [4] فيه الماء عند انسيابه إليه، وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعا، كل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسما متساوية تعرف بالأصابع، ما عدا الاثنى عشر ذراعا الأولى فإنها مفصلة على ثمانية وعشرين أصبعا كل ذراع.

قال: وأكثر ما يبقى فى قاع المقياس تسعة أذرع وإحدى وعشرون إصبعا، وأقل ما وجد ذراع وعشرة أصابع، وذلك فى سنة خمس وستين ومائة، وأكثر ما بلغ فى الزيادة سنة تسع وتسعين ومائة، فإنه بلغ ثمانية عشر ذراعا وتسعة عشر أصبعا،

---

(١) فى ب، ج: نفسه.

(٢) فى ب، ج: الديار.

(٣) ما بين القوسين ليس فى ب، ج.

(٤) فى الأصل: ينجر. وما أثبتناه من بقية النسخ الخطية، وهو الموافق لما فى الخطط (١/ ٦٠).

---

1 (١/ ٥٩).

وأقل ما كان سنة تسع وخمسين وثلاثمائة فى أيام كافور، بلغ اثنى عشر ذراعا وتسع عشرة أصبعا.

قال: وذكر ابن ميسر فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة أنه بلغ تسعة عشر ذراعا وأربعة أصابع، وبلغ الماء الباب الجديد أول (الشارع خارج باب زويلة، وكان الناس يتوجهون) [1] إلى القاهرة من مصر من ناحية المقابر، (وأظهر الحافظ لدين الله الحزن) [2] لذلك، وأخرج كتابا فيه: إذا وصل الماء إلى الباب الجديد انتقل الحافظ عبد المجيد.

وقال: هذا الكتاب الذى يعلم منه أحوال دولتنا وما يأتى بعدها، فمرض الحافظ فى آخر هذه السنة، ومات فى أول سنة أربع وأربعين.

قال: وذكر القاضى الفاضل 1 فى سنة سبع وسبعين وخمسمائة أن النيل أوفى ستة عشر ذراعا فى السادس عشر من مسرى، وأنه لا يعرف وفاؤه بهذا التاريخ فى زمن [3] متقدم.

قال المقريزى 2: وهذا مما تغير فيه القانون فى زماننا، وقد أوفى فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة فى التاسع والعشرين من أبيب.

قال: وهذا من أعجب ما يؤرخ فى زيادة النيل. قال: وأوفى سنة تسع وسبعمائة فى تاسع عشر بابه بعد النوروز بسبعة [4] وأربعين يوما.

قال: وذكر القاضى الفاضل فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فى أيام الملك العزيز

---

(١) ما بين القوسين ليس فى الأصل.
(٢) ما بين القوسين ليس فى الأصل.
(٣) فى الأصل: زمنه.
(٤) فى ب، ج: بتسعة.

---

1 هو عبد الرحيم بن على بن السعيد اللخمى المعروف بالقاضى الفاضل، من أئمة الكتاب، كان من وزراء صلاح الدين، ولد بعسقلان وانتقل إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة وتوفى فيها سنة ٥٩٦ هـ.
2 الخطط (١/ ٦٠).

عثمان ابن السلطان صلاح الدين بن أيوب أنه باشر كسر بحر أبى المنجا بنفسه، وأن النيل زاد فيها ثمانية عشر أصبعا من ثمانية عشر ذراعا.

قال: وهذا الحد يسمى عند أهل مصر اللجة [1] الكبرى.

قال المقريزى 1: فانظر كيف سمى الفاضل هذا القدر اللجة الكبرى، ولو بلغ فى زماننا هذا القدر فقط لحل بالبلاد بلاء [2] عظيم، وذلك لما أهمل من عمل الجسور.

قال: وقانون النيل اليوم أنه يزيد فى القيظ الشديد [3] إذا حلت الشمس برج السرطان والأسد والسنبلة حتى تنقص عامة الأنهار التى فى المعمور، وتبتدئ الزيادة من خامس بؤنة، وتظهر فى ثانى عشرة، وأول دفعة فى ثانى أبيب، وتنتهى زيادته فى ثامن بابه، ويأخذ فى النقصان فى العشرين منها. ومن العادة أن ينادى عليه فى اليوم السابع والعشرين من بؤنة بعدما يؤخذ قاعه وهو ما بقى من الماء القديم، ويفتح الخليج الكبير إذا وفى الماء ستة عشر ذراعا.

قال: وأدركت الناس يقولون نعوذ بالله من أصبع من عشرين. قال: وكنا نعهد الماء إذا بلغ أصابع من عشرين فاض ماء النيل وغرق الضياع والبساتين وفارت البلاليع، فمن سنة ست وثمانمائة إذا بلغ الماء أصبعا من عشرين لا يعم الأرض كلها لما فسد من الجسور، وكان إلى بعد الخمسمائة من الهجرة قانون النيل ستة عشر ذراعا فى مقياس الجزيرة، وهى فى الحقيقة ثمانية عشر. وكانوا يقولون: إذا زاد على ذلك ذراعا واحدا زاد خراج مصر مائة ألف دينار لما يروى من البلاد العالية، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعا كانت الغاية القصوى، فإن الثمانية عشر فى مقياس الجزيرة اثنان وعشرون ذراعا فى الصعيد الأعلى، فإن زاد على الثمانية عشر ذراعا واحدا نقص من الخراج مائة ألف دينار لما يستبحر من الأراضى المنخفضة.

---

(١) فى ب، ج: الحجة.

(٢) فى ب، ج: غلاء.

(٣) هذه اللفظة ليست فى الأصل.

---

1 الخطط (١/ ٦٠).

*** ذكر ذراع النيل كيف وضع ؟**

قال الإمام أبو الحسن الماوردى 1 صاحب الحاوى الكبير، أحد أئمة أصحابنا، فى كتاب (الأحكام السلطانية): وأما الذراع السوداء [1] فهى أطول من ذراع الدور بأصبع وثلثى أصبع، وأول من وضعها أمير المؤمنين هارون الرشيد، قدرها بذراع خادم أسود كان على رأسه قائما، وهى التى يتعامل الناس بها فى ذرع البز والتجارة والأبنية وقياس نيل مصر.

*** ذكر المناداة بزيادة النيل :**

قال المسبحى فى تاريخه: خرج أمر صاحب القصر إلى ابن حران بتحرير [2] ما يستفتح به القياسون كلامهم إذا نادوا على النيل، فقال: نعم لا تحصى من خزائن لا تفنى، زاد الله فى النيل المبارك.

كذا، وذكر ابن زولاق فى سيرة المعز لدين الله أنه منع فى شوال سنة اثنتين وستين وثلاثمائة من النداء بزيادة النيل، وأن لا يكتب بذلك إلا إليه وإلى جوهر القائد، فإذا تم ستة عشر ذراعا وكسر الخليج أباح النداء، وذلك لما يحصل عند الناس إذا توقفت الزيادة يوما أو أياما من القلق والانزعاج وحبس الغلات عن البيع وارتفاع السعر.

وقال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر 2 فى العود الذى يطلع به قياس النيل فى كل يوم بزيادة النيل:

---

(١) فى ب: السودان. وفى ج: السودانى.
(٢) فى الأصل: وبتحرير.

---

1 هو على بن محمد بن محمد بن حبيب، أبو الحسن الماوردى الشافعى، أقضى القضاة، فقيه أصولى مفسر، ولد فى البصرة وانتقل إلى بغداد، وولى القضاء فى بلدان كثيرة، كان يميل إلى مذهب الاعتزال فى بعض المسائل. توفى سنة ٤٥٠ هـ.

2 هو محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامى السعدى، قاض أديب مؤرخ، من أهل مصر مولدا ووفاة. توفى سنة ٦٩٢ هـ.

قد قلت لما أتى المقسى وفى يده عود به النيل قد عودى وقد نودي
أيام سلطاننا سعد السعود وقد صح القياس بجرى الماء فى العود

وقال المعمار فى أصابع الزيادة:

إن يسأل الخزان عن حال الزيادة فض فاه
قل ويك خمس أصابع وانزل بكفك فى قفاه

وقال أيضا:

قد زاد بحر النيل بعد الوفا منه أصبعين لاأصابت ذاك عين
وأمرض الخزان فانظر وجهه كيف [1] غدا من سقمه على أصبعين[2]

وقال أيضا:

جاء الرخاء ووافى النيل وانفرجت عنا الهموم وهان القمح ثم رمى
وراح خزانه [3] للنيل ينظره فاستكثر الماء فى عينيه ثم عمى

وقال القيراطى:

البحر زاد ولم يدع خزان مصر قرير عين
أبصرته من أصبع والوجه منه على اصبعين

وقال أيضا فى إسبال الستر:

قلت له لما وفى موعدى مختفيا عن حاسد معتدي
رب كما فرحتنى بالوفا أسبل عليه الستر يا سيدى

---

(١) هذه اللفظة ليست فى ج.
(٢) كذا بالأصل، ويلاحظ أن البيتين مختلفان وزنا.
(٣) فى ب: خزاينه.

وقال غيره:

توقف البحر حين جارى جودك ذا العام باحتباس
وكان من قبل فى ازدياد لو لم يجاريك [1] باختلاس
(إن فى الورى جواد قاسوا) [2] أنت جواد بلا قياس

ونظير هذا قول ابن أبى حجلة:

البحر بالقياس يجرى جوده ويداك جارية بغير قياس
الموج صفق فرحة بقدومه والنيل قبل العرس فى أعراس

وقال الصلاح الصفدى:

سقيا لمصر وما حوت من أنسها وأناسها
ومحاسن فى مقسها تبدو وفى مقياسها
ومسرة كاساتها تجلى على أكياسها
وسطور در [3] خطها البارى على قرطاسها
ورمى كنايسها ولا تنسى ظباء كناسها
ولطافة بجلالة تبدو على جلاسها
ونواسم كل المنى للنفس فى أنفاسها
ومراكب لعبت بها الأمواج فى وسواسها

وقال بدر الدين بن الحاجب مضمنا:

لله يوم الوفا والناس قد جمعوا كالروض تطفو على نهر أزاهره

---

(١) كذا وردت، والإعراب يقتضى أن تكون هكذا: (يجارك). ولكن أثبتت الياء لضرورة الوزن.
(٢) هذا الشطر لم يرد فى ج. والبيت كله لم يرد فى ب.
(٣) فى الأصل: قرط.

وللوفاء عمود من أصابعه مخلق تملأ الدنيا بشايره

وقال الصاحب فخر الدين بن مكانس:

انظر إلى النيل ما أحلى رواه وقد فاضت عزاليه وانهلت بوادره
كأن مقياسه يوم الوفا علم مخلق تملأ الدنيا بشايره

وقال الطنبدى:

إن مصرا لأطيب الأرض عندى ليس فى حسنها البديع التباس
وإذا قستها بأرض سواها كان بينى وبينك المقياس

وقال الصلاح الصفدى مضمنا:

يقول لنا المقياس والنيل هابط يقطع آمال المنى والمطامع
ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء خانته فروج [1] الأصابع

وقال أيضا مواليا[2]:

أصبحت مفرد ونيل الدمع قد غلق حتى لمقياس خدى بالمها خلق
واصفر جسمى وستر السقم قد علق وسد دمعى الكسر [3] والأرض قد ملق

وقال صاحبنا الشهاب المنصورى:

تقول لنا مصر أنا خير موطن ولا ناس فى الأمصار أظرف من ناسى
فإن تك أوقات السرور قصيرة فلا تقطعوها فى إلا بمقياسي

وقال البدر البشتكى:

---

(١) فى ب، ج: قروح.
(٢) الموالى: ضرب من ضروب الشعر العامى.
(٣) فى الأصل: الكثير.

وقاس الورى بالنيل يا ملك الذي حلا ووفا والنيل يبدو مرفقا
فقلت وهل ينقاس من خلقه الوفا بمن بالوفا فى العام يوما تخلقا

وقال أيضا يمدح قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة 1:

إذا ما قيل نائله[1] كنيل فقل هل يستوى مال وماء
فلولا جوده فى مصر غارت عيون النيل وانقطع الوفاء

وقال المعمار:

تقول مصر حين قاسوا القرى بها أيا من ضيعوا حرمتى
بأى شىء قستمونى به وبسطة المقياس فى قبضتى

وقال الحسن بن عمر بن حبيب 2:

لم أنس قول النيل فى مقياسه بلسان[2] شهم للعداة مدافع
لو رام نهر أن يجارينى على فخر[3] سددت عيونه بأصابعى

ومن أعيان أولاد أبى الرداد قال الحافظ شرف الدين الدمياطى فى معجمه: صدقة بن أبى المكارم بن صدقة المصرى، شرف الدين بن أبى الرداد صاحب المقياس، سمع ثلاثيات البخارى على الشريف أبى محمد بن يونس بن يحيى الهاشمى فى ربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمائة، بسماعه من أبى الوقت سمعت عليه. انتهى.

---

(١) فى ب، ج: يابله.
(٢) فى الأصل، ج: بلساة.
(٣) فى ب، ج: نجد.

---

1 هو أبو عبد الله، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، الحموى، قاض، من العلماء بالحديث وسائر علوم الشريعة، ولد فى حماه، وولى الحكم والخطابة بالقدس، ثم القضاء بالشام ومصر. توفى سنة ٧٣٣ هـ.

2 هو أبو محمد، بدر الدين الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب الحلبى، مؤرخ من الكتاب المترسلين، ولد فى دمشق ونسب إلى حلب، ثم رحل إلى مصر والحجاز. توفى سنة ٧٧٩ هـ.

وقال الإمام الحافظ المجتهد المؤرخ أبو شامة فى كتاب (الروضتين فى أخبار الدولتين): قال العماد الكاتب فى حوادث سنة أربع وسبعين وخمسمائة: فى شعبان من هذه السنة توفى متولى المقياس بمصر، ففوض السلطان منصبه إلى أخيه.

قال: وهذا المقياس موضع مبنى من عهد خلفاء بنى العباس، ليعرف زيادة الماء ونقصانه بالقياس، وهناك عمود فى الماء مقسوم بالأذرع، والأذرع مقسومة بالأصابع، فى مسجد ينوب فى الجزيرة عن الجامع، تصلى فيه الجماعات والجمع والأعياد [1]، ويتولاه من العهد القديم متولى من بنى أبى الرداد، ممن هو معروف بالنزاهة والعلم والسداد، وله راتب دار، ورسم وقرار.

وقال الإمام ضياء الدين نصر الله بن محمد الجزرى المعروف بابن الأثير من [2] رسالة: "هذا والنفس معلقة بمصر فإنى لم أقم [3] بها شيئا يمتع نظرى. ولا يذهب وعثاء سفرى [4]. كأنها شوقتنى وما ذوقتنى، وطالعتنى ثم قاطعتنى. ولقد شاهدت منها بلدا يشهد بفضله على البلاد، ووجدته على الحقيقة هو المصر وما عداه فهو السواد، فما رآه راء إلا ملأ عينه وصدره، ولا وصفه واصف إلا علم أنه لا يقدر قدره. وبه من عجائب الآثار ما لا يضبط بالعيان. فضلا عن الإخبار، فمن ذلك الهرمان، اللذان هرم الدهر وهما لا يهرمان. قد اختص كل منهما بعظم البناء وسعة الفناء، وبلغ من الارتفاع غاية لا يبلغها الطير فى تحليقه، ولا يدركها الطرف على شدة تحديقه، فإذا أضرم برأسه قبس ظن المتأمل نجما، وإذا استدار به قوس الغمام كان له سهما. والناس مختلفون فى وضع هذين الهرمين، فالأكثر يزعم أنهما وضعا عصمة من الطوفان، وعلى الحقيقة فإنهما بالإنكار لشأنهما أولى من العرفان. ولقد صدق المتنبى فى قوله:

أين الذى الهرمان من بنيانه ما قومه ما يومه ما المصرع

---

(١) هذه اللفظة مثبتة من ج.

(٢) هذه اللفظة ليست فى الأصل.

(٣) هذه اللفظة ليست فى الأصل.

(٤) فى الأصل: صغرى.

ومن عجائبها أيضا: موضع يقال له المقياس، وهو بناء وضعه تجاه الفسطاط، يعلم منه ميزان النيل والارتفاع والانحطاط، وبوسط هذا البناء عمود قسم أذرعا، وقسم كل ذراع منه أصبعا أصبعا، فإذا بلغ الماء ستة عشر ذراعا عند الازدياد، يستحق حينئذ الخراج على جميع البلاد. وبظاهر مصر متنزهات كثيرة، كبركة الحبش وبركة الفيل، ومستنقعات ما يغادرها المد فتسمى متقطعات النيل، ولأهل مصر بهذه المستنقعات غرام واشتهار، ومفاخرة فى تفضيلها على غيرها من الديار، وهى لعمرى حسنة المنظر، شبيهة بدراهم مبثوثة على فراش أخضر".

وقال ابن نباتة وهو بدمشق يتشوق إلى المقياس والنيل:

أرق له بالشام نيل مدامعى ... يجريه ذكر منازل المقياس
سقيا لمصر منازلا معمورة ... بنجوم أفق أو ظباء كناس
وطنى سهرت له وشابت لمتى 1 ... وتهيم عينى فى هواه وراسى
من لى به والحال ليس بآسن ... كدر وعطف الدهر ليس بقاسى
والطرف يستجلى غزالا آنسا ... بالنيل لا يؤثر على بناس [1]

وقال أيضا:

خليلى من مصر قفا نبك فى النيل ... على عيشنا بالنيل فى فلك الفلك
على مصر والهفى على مصر لهفة ... يصيح بها قلبى المشوق على السبك

وقال الإمام زين الدين عمر بن الوردى فى أحجية فى مقياس:

يا من لثغر العلا ... والعلم أضحى يحوط
إن كنت ذا فطنة ... ما مثل أحيط[2] قنوط

(١) فى ب، ج: بأناس.
(٢) فى الأصل: أحيث. وفى ج: أجبت.

1 لمتى: اللمة: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن.

ذكر يوم الوفاء وكسر الخليج

قال المقريزى 1: كان للخلفاء الفاطميين فى طول السنة أعياد ومواسم، وهى موسم رأس السنة أول ليلة من ليالى المحرم، وموسم أول العام أول يوم منه، ويوم عاشوراء، ومولد النبى ﷺ، ومولد على بن أبى طالب، ومولد الحسن، ومولد الحسين، ومولد فاطمة الزهراء، رضى الله عنهم، ومولد الخليفة الحاضر، وليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه، وليلة أول رمضان، وغرة رمضان، وسماط رمضان، وليلة الختم، ويوم عيد الفطر، وموسم [1] عيد النحر، وعيد الغدير، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، وموسم فتح الخليج، ويوم النيروز، ويوم الغطاس، ويوم الميلاد، وهو مولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وخميس العهد، وأيام الركوب.

قال وقد ذكر بعض المفسرين: أن يوم وفاء النيل هو اليوم الذى تواعد موسى عليه الصلاة والسلام وفرعون بالاجتماع فى قوله تعالى: ﴿ **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى** ﴾ 2، وقد جرت العادة أن اجتماع الناس للتخليق [2] يكون فى هذا الوقت.

---

(١) فى ج: ويوم.

(٢) هذه اللفظة ليست فى ب، ج. والمراد بالتخليق: تخليق المقياس.

---

1 الخطط (١/ ٤٧٠).

2 سورة طه، الآية ٥٩.

قال: وكان للخلفاء الفاطميين فى موسم فتح الخليج وجوه من البر والركوب لتخليق المقياس ومبيت القراء بجامع المقياس، وتشريف ابن أبى الرداد بالخلع وغيرها، وركوب الخليفة إلى فتح الخليج، وتفرقة الرسوم على أرباب الدولة من العين والكسوة والمآكل والتحف.

وقال ابن زولاق فى كتاب (سيرة المعز لدين الله): فى ذى القعدة سنة اثنتين وستين وثلاثمائة - وهى السنة التى قدم فيها الخليفة المعز إلى القاهرة من بلاد المغرب - ركب المعز لكسر خليج القنطرة، فكسر بين يديه، ثم سار إلى شاطئ النيل حتى بلغ إلى بنى وائل 1 فى مركب عظيم وخلفه وجوه أهل الدولة، ثم عاد إلى قصره.

وذكر المسبحى فى (تاريخه الكبير) ركوب العزيز بن المعز، وركوب الحاكم بن العزيز، وركوب الظاهر بن الحاكم فى كل سنة لفتح الخليج.

وقال ابن المأمون فى سنة ست عشرة وخمسمائة: وعندما بلغ النيل ستة عشر ذراعا أمر بإخراج الخيم، وأن يضرب الثوب الكبير[1] الأفضلى المعروف بالقاتول، وهو أعظم ما فى الحاصل بأربعة دهاليز وأربع قاعات خارجا عن القاعة الكبيرة، ومساحته على ما ذكر مائة ألف ذراع بالذراع الكبير، خارجا عن سرادقه، وعموده ارتفاعه خمسون ذراعا، وكان أول ما نصب فى أيام الأفضل تأذى منه جماعة، ومات رجلان فسمى بالقاتول لذلك، وما صار يضرب إلا بحضور المهندسين ونصب عدة أساقيل بأخشاب كثيرة.

قال: ووصلت[2] كسوة موسم فتح الخليج برسم الخليفة وأخيه والوزير وبعض

---

(١) هذه اللفظة ليست فى ب، ج.

(٢)هذه اللفظة ليست فى ب، ج.

---

1 كان بنو وائل ينزلون جنوبى الفسطاط.

جهاته، وفى صبيحة هذا اليوم خلع على ابن أبى الرداد ورؤساء المراكب وغيرهم، وحمل إلى المقياس برسم المبيت والركوب ما يطول ذكره.

وقال فى سنة سبع عشرة وخمسمائة: ولما بلغ النيل خمسة عشر ذراعا أمر بإخراج الخيام والمضارب الدبيقى1 والديباج، وتحول الخليفة إلى منظرة اللؤلؤة بحاشيته، ووصلت كسوة الموسم المذكور برسم الخليفة وإخوته، والوزير وأولاده، وأربعة من خواص الدولة، وابن أبى الرداد. فلما وفى النيل ستة عشر ذراعا ركب الخليفة والوزير إلى الصناعة بمصر، ورصت العشاريات بين أيديهما، ثم عديا فى (أحدها وصليا فى المقياس) [1]، ونزل الثقة صدقة بن أبى الرداد منزلته، وخلق العمود، وعاد الخليفة من فوره وركب العشارى الفضى والوزير صحبته، والعساكر (طول البر قبالته) [2]، والرهجية تخدم برا وبحرا، والصدقات والرسوم تفرق، وخلع على ابن أبى الرداد خلعة مذهبة وثوب دبيقى وأربعة أكياس دراهم، ونشرت قدامه الأعلام الملونة، وأطلق له برسم المبيت من البخور والشموع والأغنام والحلاوات شىء كثير، وهيئت المقصورة فى منظرة السكرة برسم راحة الخليفة وتغيير ثيابه، وقد وقعت المبالغة فى فرشها وتزيينها، وفرق ما جرت العادة به، ثم عاد إلى قصره والوزير مترجل فى ركابه.

وقال: فى سنة ثمانى عشرة وخمسمائة وصلت الكسوة المختصة بفتح الخليج، وهى برسم الخليفة بدلتان، وبرسم أخويه [3] بدلتان مذهبتان وأربع حلل مذهبة، وبرسم الوزير بدلة موكبية مذهبة، وبرسم أولاده الثلاثة ثلاث بدلات مذهبة، وبرسم ابن أبى الرداد وغيره عدة بدلات، وبرسم الغلمان الخاص سبعمائة قباء، وبرسم رؤساء العشاريات والنوتية من الشقق الدمياطى والفوط الحرير والمناديل شىء كثير، وما

---

(١) جاء مكان ما بين القوسين فى ب، ج: أحدهما إلى المقياس.

(٢) جاء مكان مابين القوسين فى ب: طول قبالته. وفى ج: قبالته طول البرين.

(٣) فى ج: أخيه.

---

1 الدبيقى: نسبة إلى دبيق، قرية بمصر، معروفة بجودة ثيابها.

هو برسم الهبات والصدقات من الذهب أربعة آلاف دينار وخمسمائة دينار، ومن الورق 1 خمسة عشر ألف درهم، وما هو برسم المائدة والأسمطة من الضأن والبقر وسائر الأصناف شيء كثير، ومن الأزهار والبخور والشموع كذلك.

وفى عاشر رجب بلغ النيل ستة عشر ذراعا، فزينت العشاريات كلها والستور الدبيقى الملونة والأهلة الذهب والفضة، وبات القراء تلك الليلة فى المقياس ولهم من الدراهم التى تفرق أوفى نصيب، وعدى الوزير إلى المقياس وخلق العمود بما جرت العادة به من الطيب.

وفى ثانى يوم خرج الخليفة بزى الخلافة وناموسها، بالثياب الطميم التى تذهل الأبصار، وبالمنديل بالشدة الغريبة التى ينفرد بلباسها فى الأعياد والمواسم خاصة، وكانت تسمى عندهم شدة الوقار، مرصعة بنفيس الياقوت والزمرد والجوهر، وعند لباسها يتجنب الكلام ويهاب، ولا يكون سلام من أحد إلا بتقبيل الأرض من بعيد من غير دنو. وركب والدولة كلها بين يديه، ونشرت عليه المظلة والمقرئون يقرءون القرآن عن يمينه، والمنشدون عن يساره، والدبادب والبوقات بين يديه، والعساكر كلها بالعدة المذهبة الحربية والآلات اللامعة المضيئة، وقد زين جميع ما بالطرق من الحوانيت والدور والمساكن وأبواب الحارات بأنواع الستور والديباج وأصناف السلاح، وملأت الحفرة [1] الفجاج [2] بالصدقات والرسوم على الفقراء والمساكين وأرباب الجوامع والمساجد من طول الطريق، إلى أن وصل إلى الخيام المنصوبة، فوقف راكبا، ورجل كل من بين يديه وقبل الأرض. وأخذ الوزير بشكيمة الفرس وشق به الخيام إلى أن وصل إلى القاعة الكبرى، فجلس على سرير الخلافة واصطفت الأمراء بين يديه، وختم المقرئون القرآن، وأنشد شعراء المجلس على طبقاتهم.

---

(١) جاء مكان هذه اللفظة فى الخطط للمقريزى (١/ ٤٧٤): النظارة.

(٢) فى ب: الضجاج. وليست فى ج.

---

1 الورق: بفتح الواو وكسر الراء: الفضة.

فلما فرغ آخرهم صعد إلى منظرة السكرة التى بالسد، وهى من جنات الدنيا المزخرفة، وصعد معه أخويه [1] ووزيره وأولاد الوزير، فجلس فيها، وفتحت الطاقات التى فى المنظرة، فساعة مشاهدته قبل الناس الأرض، والجند كلهم على السد [2]، والقرآن والتكبير من الجانب الغربى حيث الخليفة، والرهج واللعب من الجانب الشرقى، ثم أمرهم الوزير أن يكسروه فكسروه وقبلوا الأرض كلهم وانصرفوا، وانحدرت العشاريات وهى مزينة بالذهب والفضة والستور، وغلقت الطاقات، ودخل الخليفة المقصورة التى لراحته، وكذلك الوزير والأمراء والخواص، واستدعى للوقت والى مصر من البر الشرقى، وخلع عليه بذلة مذهبة، وقبل الأرض من تحت المنظرة وعدى فى البحر، ثم خلع على رؤساء بقية المراكب ومن جرت العادة له، وفرقت الرسوم على أربابها، ومدت الأسمطة، ولما استحق العود عاد الموكب بجملته وسار كما جاء أولا، والقراء يقرءون، والصدقات تفرق بطول الطريق.

قال صاحب الذخائر: كان فى قبة العشارى الذى يعدى فيه الخليفة مائة ألف درهم وسبعة وستون ألفا وسبعمائة درهم فضة نقرة، وإن المطلق لصناع الصاغة عن أجرة ذلك، وفى ثمن ذهب لطلائه خاصة - ألفان وتسعمائة دينار.

وقال ابن الطويل: إذا أذن الله تعالى بزيادة النيل طالع ابن أبى الرداد بما استقر عليه أذرع القاعدة فى اليوم الخامس والعشرين من بؤنة، وأرخه بما يوافقه من أيام الشهر العربى فعلم ذلك من مطالعته، وأخرجت إلى ديوان المكاتبات فنزلت فى المسير المرتب بأصل القاع. والزيادة بعد ذلك كل يوم مؤرخا بيومه من الشهر العربى وما وافقه من أيام الشهر القبطى لا يزال كذلك، وهو محافظ على كتمان ذلك لا يعلم به أحدا قبل الخليفة وبعده الوزير، فإذا بقى من الوفاء أصبع أو أصبعان، وعلم ذلك من مطالعته - أمر أن يحمل إلى المقياس فى تلك الليلة الخبز

---

(١) كذا جاءت بالنسخ المخطوطة. والوجه أن يقال: أخواه.

(٢) فى الأصل: بالسد.

السميد[1] والخراف المشوية والحلوى والشموع، ويؤمر بالمبيت فى تلك الليلة بالمقياس، فيحضر إليه قراء الحضرة والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة ومصر ومن يجرى مجراهم، فيقرءون فيه تلك الليلة، وتوقد الشموع عليهم إلى الصباح.

ولوفاء النيل عندهم قدر عظيم، ويبتهجون به ابتهاجا زائدا، ويهتمون بأمره اهتماما عظيما أكثر من كل موسم، فإذا أصبح الصباح من هذا اليوم، وحضرت مطالعة ابن أبى الرداد إليه بالوفاء - ركب إلى المقياس لتخليقه، فيحضر الوزير إلى القصر، ويركب الخليفة بزى أيام الركوب فى الجمع الهائل على ترتيب الموكب، ويخرج شاقا من باب زويلة سالكا إلى جامع ابن طولون والجسر الأعظم بين البركتين 1 إلى الساحل بمصر إلى الصناعة، فينزل بمنظرتها، ويركب فى العشارى وعليه قبة ملبسة بصفائح الفضة المذهبة، ويركب الوزير وبعض خواصه، وليس فى العشارى من هو جالس سوى الخليفة باطنا والوزير ظاهرا، ويطلع إلى المقياس من بابه العالى على الدرج التى يعلوها النيل، فيدخل إلى الفسقية فيصلى هو والوزير ركعات، فإذا فرغ من صلاته أحضرت الآلة التى فيها الزعفران والمسك، فيذيبها بيده، ويناولها صاحب بيت المال، فيناولها لابن أبى الرداد، فيلقى نفسه فى الفسقية ويخلق العمود، وقراء الحضرة من الجانب الآخر يقرءون القرآن نوبة نوبة، ثم يخرج من فوره راكبا فى العشارى المذكور، ثم هو بالخيار، إما أن يعود إلى ساحل مصر ويركب منه عائدا إلى القاهرة، أو ينحدر فى العشارى إلى المقس فيتبعه الموكب إلى القاهرة، ويكون فى البحر فى ذلك اليوم ألف قرقورة مشحونة بالعالم فرحا بوفاء النيل، ويشرف ابن أبى الرداد ثانى يوم - وهو من العدول المحتكمين - بخلعة مذهبة وطيلسان مقور يلبسه فى القصر، ويخرج (من باب العيد) [2] ويشق من بين القصرين، ويحمل أمامه على أربعة بغال مع أربعة من خدم بيت المال أربعة أكياس،

---

(١)فى ب، ج: السمين. والسميد لغة فى السميذ وهو: لباب الدقيق.

(٢) ما بين القوسين ليس فى ج.

---

1 أى: بركة الفيل وبركة قارون.

فى كل كيس خمسمائة درهم ظاهرة فى أكفهم، يركب معه أقاربه وبنو عمه وأصدقاؤه، وبين يديه الطبل والبوق، ويجىء إلى كل باب من أبواب القصر، ويقعد[1] عليه ويقبله ويركب، وكذا عادة كل من يخلع عليه من الدولة. ويخرج من باب زويلة إلى مصر، فيعدى إلى المقياس، وهذه الأكياس معدة له ولبنى عمه بتقرير من أول الزمان، فإذا انقضى هذا الشأن شرع فى الركوب إلى فتح الخليج ثانى يوم، وقد كان وقع الاهتمام به منذ دخلت زيادة النيل ذراع الوفاء اهتماما عظيما، فتخرج الخيمة التى يقال لها القاتول، لأن فراشا سقط من أعلى عمودها فمات فسميت بذلك، وطوله سبعون ذراعا، وبأعلاه صفرية [2] فضة [3] تسع راوية ماء. وسعة الخيمة تزيد على فدانين مستديرة، وتنصب فى بر الخليج الغربى على حافته مكان بستان المحلى اليوم [4]، وكانت ثم منظرة يقال لها السكرة برسم جلوس الخليفة لفتح الخليج فى مثل هذا اليوم، وتنصب أرباب الرتب من الأمراء (من بحرى تلك)[5] الخيمة الكبرى خياما كثيرا. فإذا تم ذلك وعزم الخليفة على الركوب ثالث يوم التخليق ورابعه - حضر الوزير إلى باب القصر، وخرج الخليفة فى هيئة عظيمة وهمة عالية، وحضر جميع العسكر فى ذلك اليوم فارسها وراجلها، وخرج زى الخليفة من المظلة والسيف والرمح والألوية والدواة وغير ذلك، ويزاد على سائر المواكب أربعون بوقا، عشرة من الذهب وثلاثون من الفضة، ويكون أربابها ركبانا، وأرباب البوقات النحاس مشاة، ومن الطبول الكبار التى مكان خشبها فضة عشرة، ومن التماثيل فى شكل الوحوش من الغزلان والسباع والفيلة والزرافات عدة وافرة، منها ما هو ملبس بالعنبر وما هو ملبس بالصندل، ثم شكل التفاح والأترج وغير ذلك. ويركب فى ذلك اليوم من أقارب الخليفة المقيمين بالقصر

---

(١) فى ب، ج: ويسلم.

(٢) فى ب: صفرة. وفى ج: قبة.

(٣) هذه اللفظة ليست فى ب.

(٤) هذه اللفظ ليست فى ج.

(٥) جاء مكان ما بين القوسين فى ج: حول تملك.

عشرون أو ثلاثون، وهم بالنوبة فى كل سنة، فيتقدمون إلى المنظرة فى مكان لهم، ويكون قد لف عمود الكبرى المشار إليها إما بديباج أحمر أو أصفر أو أبيض من أعلاه إلى أسفله، ويركب الخليفة من باب القصر وعليه ثوب يقال له البدنة، وهو كله ذهب وحرير مرقوم، والمظلة من شكله، ولا يلبس هذا الثوب غير هذا اليوم، ويسير بالموكب الهائل شاقا من القاهرة من الطريق التى ركب منها لتخليق المقياس، إلا أنه لا يدخل طريق مصر من الخشابين بل خارجها من طريق الساحل.

فإذا جاز على جامع ابن طولون وجد قد ربط من رأس المنارة من مكان العشارى النحاس حبلا طويلا قوى[1] موضوع آخره من الطريق، وفيه قوم يقال لهم السحارية[2]، واحد فى زى فارس على شكل فرس[3]، وفى يده رمح وبكتفيه ورقة، فينحدر على بكرة، وفى رجليه آخر يمسكها، وهو يتقلب فى الهواء بطنا وظهرا حتى يصل إلى الأرض، ويكون قاضى القضاة وأعيان الشهود جلوسا فى باب الجامع من هذه الجهة، فإذا رآهم الخليفة وقف لهم وقفة فيسلم على القاضى، ثم يركب القاضى ومن معه ويكون قد نصب لهم بالقرب من الخيمة الكبرى خيمتان، إحداهما ديباج أحمر، والأخرى دبيقى أبيض، بصفارى فضة لكل واحدة، ويتم الخليفة بهيئته إلى أن يدخل من باب الخيمة، ويجلس على المرتبة المنصوبة له، ويحوط به الأمراء، ويجلس الوزير على كرسيه الجارى به العادة ورجلاه تحك[4] بالأرض، ويقف أرباب المراتب ساعة[5] والقراء يقرءون القرآن ساعة زمانية، فإذا ختموا قراءتهم دخل الشعراء فأنشدوا ما يناسب هذا اليوم واحدا فواحدا. وتقدم مرة شاعر يقال له ابن خبر، فأنشد قصيدة منها:

---

(١) كذا فى النسخ المخطوطة. والوجه أن يقال: قويا.
(٢) فى ب، ج: النحسارية.
(٣) فى ج: فارس.
(٤) فى ب، ج: تحت.
(٥) هذه اللفظة ليست بالأصل.

فتح الخليج [1] فسال منه الماء وعلت عليه الراية البيضاء
وصفت موارده لنا فكأنه كف الإمام فعرفها الإعطاء

فانتقد الناس عليه فى قوله: « فسال منه الماء »، وقالوا: أى شىء يجرى من البحر غير الماء، فضيع ما قاله بعد هذا المطلع.

وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة، وأنشد:

ما زال هذا السد ينظر فتحه إذن الخليفة بالنوال المرسل
حتى إذ برز الإمام بوجهه وسطا عليه كل حامل معول
فجرى كأن أذيب فيه عنبر يعلوه كافور كطيب [2] المندل

فانتقد عليه أيضا فى قوله فى البيت الثانى، وقالوا: هلل وجه الإمام بسطوات المعاول عليه، وإن كان قصد فتح السد بالمعاول، لكنه ما نظمه إلا قلقا.

ثم تقدم شاعر يقال له كافى الدولة أحمد، وأنشد قصيدة شهد له جماعة أنه عملها بديها بحضورهم:

لمن اجتماع الخلق فى ذا المشهد للنيل أم لك يا ابن بنت محمد
أم لاجتماعكما معا فى موطن وافيتما فيه لأصدق موعد
ليس اجتماع الخلق إلا للذي حاز الفضيلة منكما فى المولد
شكروا لكل منكما بوفائه بالسعد لكن ميلهم للأجود
ولمن إذا اعتمد الوفاء ففعله بالقصد ليس له كمن لم يقصد
هذا يفى ويعود (ينقص تارة) [3] وتصد [4] أنت النقص إن لم تزدد

---

(١) فى ج: السد.
(٢) فى الأصل: لطيب.
(٣) جاء مكان ما بين القوسين فى ب: تارة ينقص.
(٤) فى الأصل، ج: وتعيد.

وتراه[1] إن بلغ النهاية قصرت وإذا بلغت إلى النهاية تبتدي

فالآن قد ضاقت مسالك سعيه بالسد فهو به بحال مقيد

فإذا أردت صلاحه [2] فافتح له أترى جنانا [3] مخصبا وترى ندى

وأمر بفصد العرق منه فما امتلا جسم فصح الجسم إن لم يفصد

واسلم إلى أمثال يومك هكذا [4] فى عيش مغبوط وعز مخلد

فأمر له على الفور بخمسين دينارا، وخلع عليه، وزيد فى جائزته.

ثم يقوم الخليفة عن السرير راكبا، والوزير بين يديه، حتى يطلع إلى المنظرة المعروفة بالسكرة وقد فرشت بالفرش المعدة لها، ويفتح إحدى طاقات المنظرة ويطل منها الخليفة على الخليج، ويشير بالفتح، فتفتح بأيدى عمال البساتين بالمعاول، ويخدم بالطبل والبوقات، فإذا اعتدل الماء فى الخليج دخلت العشاريات اللطاف ثم العشاريات الخاص الكبار [5]، وهى ستة [6]: الذهبى والفضى والأحمر والأصفر واللازوردى والصقلى، وساروا فى الخليج وعلى بيت كل منها الستور والحرير، وعلى رءوسها وأعناقها الأسنة والقلائد، فتسند إلى البر الذى فيه المنظرة الجالس فيها الخليفة، فإذا استقر جلوس الخليفة والوزير بالمنظرة ودخل قاضى القضاة والشهود الخيمة الدبيقى البيضاء - وصلت المائدة من القصر فى الجانب الغربى من الخليج على رءوس الفراشين صحبة صاحب المائدة، فتوضع فى خيمة معدة لذلك ولها رواء عظيم ومسك فائح، وعليها القوارات [7] الحرير، ويحمل للوزير عادته من

---

(١) فى ب: وقراه. وفى جـ: وقواه.

(٢) فى ب، ج: سلاحه.

(٣) فى ج: حنانا.

(٤) فى ج: هذا.

(٥) هذه اللفظة ليست فى ج.

(٦) فى النسخ المخطوطة: سبعة. والتصويب من الخطط (١/ ٤٧٩).

(٧) فى ب: القواران. وفى ج: القورات.

الطعام فى صوانى التماثيل، وكذا سائر الأمراء، ويحمل إلى قاضى القضاة من غير تماثيل توقيرا للشرع، ويصل من ذلك إلى الناس شىء كثير، ولا يزالون كذلك إلى أن يؤذن بالعصر، فإذا صلوا ركب بالموكب كله لانتظار ركوب الخليفة، فيركب لابسا غير البدلة بدلة أخرى، والمظلة مناسبة لثيابه التى عليه، والترتيب بأجمعه على حاله، ويسير فى البر الغربى من الخليج شاقا البساتين هناك، حتى يدخل من باب القنطرة 1 إلى القصر، ويمضى الوزير إلى داره.

وقال المقريزى 2: منظرة السكرة بناها العزيز بالله ابن المعز، كان الخليفة يجلس فيها يوم كسر الخليج، وكانت من جنات الدنيا المزخرفة، وكان لها بستان عظيم وفيها عدة أماكن معدة لنزول الوزير وغيره من الأكابر، وقد دثرت.

قال: ويشبه أن يكون موضعها فى الموضع الذى يقال له اليوم المريس قريب قنطرة السد، وقد أشار الفقيه عمارة اليمنى إلى ذكر هذا الموسم فى قصيدته التى رثى بها الخلافة [1] الفاطمية، وهى القصيدة التى قال فيها أبو سعيد لم يسمع فيما يكتب به دولة بعد انقراضها أحسن منها وهى هذه:

رميت [2] يا دهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حسن الحلى بالعطل

سعيت فى منهج الرأى العثور فإن ... قدرت فى عثرات الدهر فاستقل

جدعت مارنك 3 الأقنى 4 فأنفك لا ... شك ما بين قرع السن والخجل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل ... سقيت مهلا أما تمشى على مهل

لهفى ولهف منى الآمال قاطبة ... على فجيعتها فى أكرم الدول

---

(١) فى الأصل: الخليفة.

(٢) هذه اللفظة ليست فى ب، ج.

---

1 باب القنطرة: كان أحد أبواب القاهرة فى سورها الغربى الذى أقامه جوهر الصقلى سنة ٣٦٠ هـ.

2 الخطط (١/ ٤٧٠).

3 مارنك: المارن من الأنف: ما لان منه.

4 الأقنى: وصف لمن ارتفع وسط قصبة أنفه وضاق منخراه.

قدمت مصر فأولتنى خلائفها ... من المكارم ما أربى على الأمل [1]

قوم عرفت بهم لب الألوف ومن ... كما لها أنها جاءت ولم أسل

وكنت من وزراء [2] الدست 1 (حين وفا)[3] ... رأس الحصان بها دينا على الكفل

ونلت من عظماء الجيش مكرمة ... وحلة حرست من عارض الخلل

يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة ... لك الملامة إن قصرت فى عذلى

بالله رد ساحة القصرين وابك معى ... عليهما لا على صفين والجمل

وقل لأهليهما والله ما التحمت ... فيكم جراحى ولا قرحى بمندمل

ماذا عسى كانت الإفرنج فاعلة ... فى حق نسل أمير المؤمنين على

هل كان فى الأمر شىء غير قسمة ما ... ملكتم بين حكم السبى والنقل [4]

وقد حصلتم عليها واسم جدكم ... محمد وأبوكم غير منتقل

مررت بالقصر والأركان خالية ... من الوفود وكانت قبلة القبل

فملت عنها بوجهى خوف منتقد ... من الأعادى ووجه الود لم يمل

أسبلت من أسفى دمعى غداة خلت ... رحابكم وغدت مهجورة السبل

أبكى على ما تراءت من مكارمكم ... تشكو من الدهر حيفا غير محتمل

وكسوة الناس فى الفصلين قد درست ... ورث منها جديدى عندهم وبلى

وموسم كان فى فتح الخليج لكم ... (يأتى تجملكم فيه على الجمل)[5]

---

(١) فى ب، ج: الأول.

(٢) فى ب، ج: وراء.

(٣) فى ب، ج: خير سما.

(٤) فى ج: والقفل.

(٥) هذا الشطر ليس فى ب، ج.

---

1 الدست: صدر المجلس. ويقال: دست الوزارة، أى: منصبها.

(وأول العام والعيدين كم لكم) [1] فيهن من نيل جود ليس بالوشل 1

والأرض تهتز فى يوم الغدير كما يهتز ما بين قصريكم من الأسل 2

والخيل تعرض فى وشى 3 وفى شية مثل العرايس فى حلى وفى حلل

ولاحملتم قرى الأضياف من سعة[2] الأطباق إلا [3] على الأكتاف والعجل

وما خصصتم ببر أهل ملتكم حتى عممتم به الأقصى من الملل

كانت رواتبكم للذمتين ولل ضيف المقيم وللطارى من الرسل

ثم الطراز بتنيس الذى عظمت منه الصلاة لأهل الأرض والدول

وللجوامع من إحسانكم نعم لمن تصدر فى علم وفى عمل

وربما عادت الدنيا فمعقلها منكم وأضحت بكم محلولة العقل

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم ولا نجا من عذاب الله غير ولى

ولا سقى الماء من حر ومن ظمإ من كف خير البرايا خاتم الرسل

ولا رأى جنة الله التى خلقت من خان عهد الإمام العاضد بن على

أئمتى وهداتى والذخيرة لى إذا ارتهنت بما قدمت من عملى

تالله لم أوفهم فى المدح حقهم لأن فضلهم كالوابل الهطل

ولو تضاعفت الأقوال [4] واستبقت ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل

(باب النجاة هم دنيا وآخرة وحبهم فهو أصل الدين والعمل) [5]

---

(١) هذا الشطر ليس فى ب، ج. وجاء مكانه الشطر الأول من البيت السابق.
(٢) فى الأصل: سبعة.
(٣) هذه اللفظة ليست فى ب، ج.
(٤) فى الأصل: الأفول.
(٥) هذا البيت ليس فى ب.

---

1 الوشل: القليل.
2 الأسل: نبات ذو أغصان كثيرة شائكة الأطراف.
3 وشى: نقش وحسن. يقال: وشى وشيا وشية.

نور الهدى ومصابيح الدجى ومحل الغيث (إن ربت) [1] الأنواء فى المحل

أئمة خلقوا نورا فنورهم من نور خالص نور الله لم يفل

والله لا زلت عن حبى لهم أبدا ما أخر الله لى فى مدة الأجل

فصل

ولما انقرضت دولة الفاطميين صار ملوك بنى أيوب يركبون إلى المقياس يوم الوفاء.

قال القاضى الفاضل: فى سنة سبع وسبعين وخمسمائة وصل المفرد فى حادى عشر (ربيع الأول بالوفاء فى سابع عشرة) [2]، فأوفى بمصر فى سابع [3] عشرينه يوم السادس عشر من مسرى.

قال: ولا يعرف وفاؤه بهذا التاريخ فى زمن متقدم، فركب السلطان صلاح الدين لتخليق المقياس فى غد، وخلع [4] على ابن أبى الرداد فى سلخه، وفتح الخليج فى رابع ربيع الآخر والماء على خمسة عشر أصبعا من سبعة عشر ذراعا بمصر وإلى القاهرة، ثم ركب السلطان فى أول جمادى الأولى لفتح بحر أبى المنجا وعاد.

وفى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فى ثانى [5] عشر رمضان ركب العزيز إلى المقياس وخلقه، وفى العشرين منه فتح سد الخليج. فركب العزيز لذلك وكثر المتفرجون، والعزيز هو ثانى ملوك بنى أيوب، وهو ولد السلطان صلاح الدين، واسمه عثمان، وهو من خيار ملوك مصر، وهو صاحب وقف الخشابية بجامع عمرو، وهو مدفون داخل قبة الإمام الشافعى ﷺ.

---

(١) ما بين القوسين ليس فى ب، ج.

(٢) ما بين القوسين ليس فى ب، ج.

(٣) فى ب، ج: سادس.

(٤) فى ب، ج: وحاج.

(٥) فى ب، ج: ثامن.

قال المقريزى: وفى سنة تسع وسبعين[1] وستمائة فى سادس عشر ربيع الآخر أوفى النيل أول أيام النسىء، فركب السلطان إلى المقياس وخلق العمود، ثم ركب فى الحراقة وكسر الخليج الكبير، فكان يوما مشهودا، وكتبت البشائر بالوفاء على العادة.

وقال المقريزى: فى سنة خمس وثمانين وسبعمائة ركب السلطان الملك الظاهر برقوق (حتى خلق المقياس، وفتح الخليج بحضرته على العادة، ولم يعهد بعد الملك الظاهر بيبرس ملك ركب حتى خلق المقياس وفتح الخليج، سوى الظاهر برقوق)[2].

وكذا قال الحافظ ابن حجر فى إنباء الغمر.

واستمر الظاهر برقوق يركب إلى المقياس وكسر الخليج كل سنة مدة ولايته، وركب ولده الملك الناصر فرج كذلك فى سنة سبع وثمانمائة، وفى سنة إحدى عشرة.

[وركب الملك المؤيد شيخ لذلك فى سنة ست عشرة أول ما تسلطن، ثم استمر يركب إلى أن مات، ثم لم يركب له سلطان إلى سنة ثلاث وثلاثين، فركب الملك الأشرف برسباى لذلك. ثم لم يركب له إلى أن مات، ولا أحد من السلاطين بعده إلى أيام الملك الظاهر خشقدم، ركب له فى ولايته بعض سنين][3]، ولم يركب له سلطان عصرنا[4].

وقال بعضهم فى كسر الخليج وكتابة البشائر:

سد الخليج بكسره خير الورى طرا فكل قد غدا مسرورا
الماء سلطان فكيف تواترت عنه البشائر إذ غدا مكسورا

---

(١) فى ب، ج: وستين.
(٢) ما بين القوسين ليس فى ج. وفيه اضطراب شديد فى ب.
(٣) ما بين المعقوفتين به تقديم وتأخير واضطراب شديد فى ب، ج.
(٤) أى: الملك الأشرف قايتباى.

وقال شمس الدين [1] محمد بن داود بن قول سبط الملك الظاهر:

لله در الخليج إن له تفضلا لا نزال نشكره
حسبك منه بأن عادته يجبر من لا يزال يكسره

وقال ابن [2] إياس الذهبى:

كسر الخليج وكان ذلك نعمة سرت قلوب المسلمين بسره [3]
ومن العجائب والغرائب أنه جبرت قلوب العالمين بكسره

وقال تقى الدين 1 بن [4] أبى بكر بن [4] حجة يهنئ الملك المؤيد شيخ بكسر الخليج (عام ست عشرة وثمانمائة) [5]، وهو عازم على السفر لقتال نوروز لما عصى:

أيا ملكا بالله أضحى مؤيدا ومنتصبا فى ملكه نصب تمييز
كسرت بمسرى نيل مصر وتنقضى وحقك بعد الكسر أيام نوروز

وأنشد الشهاب الحجازى 2 لنفسه فى ذلك:

أيا ملكا كالبحر سمته الوفا ليهنيك كسر النيل إذ أنت معزوز

---

(١) فى ب، ج: الأئمة.
(٢) هذه اللفظة ليست فى الأصل.
(٣) فى ج: بكسره.
(٤) هذه اللفظة ليست فى الأصل.
(٥) ما بين القوسين ليس فى ب، ج.

---

1 هو تقى الدين، أبو بكر بن على بن عبد الله الحموى الأزرارى، المعروف بابن حجة، إمام أهل الأدب فى عصره، وكان شاعرا جيد الإنشاء، من أهل حماه، ولد ونشأ ومات فيها. توفى سنة ٨٣٧ هـ.

2 هو شهاب الدين، أحمد بن محمد بن على الأنصارى الخزرجى، المعروف بشهاب الدين الحجازى، من شيوخ الأدب فى مصر. مولده ومنشؤه ووفاته فى القاهرة، نظم الشعر، وعنى بالموسيقى، وقرأ الحديث والفقه واللغة، وتصدر للتدريس. توفى سنة ٨٧٥ هـ.

وفيت إلى نوروز والغدر طبعه وبعد وفاء البحر يكسر نوروز

وقال البدر البشتكى:

رعى الله مصرا كم بها من مسرة (ومنزل أنس)[1] لاح كالطالع السعدى

رويت الهنا عن سدها يوم كسره فها أنا مهما عشت أروى عن السدى

وقال الصفى عبد العزيز بن سرايا الحلى يمدح الملك الناصر محمد بن قلاوون (يوم الوفاء) [2] عند كسر الخليج:

خلع الربيع على غصون البان حللا فواضلها على الكثبان

ونمت فروع الدوح [3] حتى صافحت كفل الكثيب ذوائب الأغصان

وتتوجت [4] هام [5] الغصون وضرجت خد الرياض شقائق النعمان

وتنوعت بسط الرياض فزهرها متباين الأشكال والألوان

من أبيض يقق 1 وأصفر فاقع أو أزرق صاف وأحمر قان

والظل يسرق فى الخمائل خطوة والغصن يخطر خطرة [6] النشوان

وكأنما الأغصان سوق رواقص قد قيدت بسلاسل الريحان

والشمس تنظر من خلال فروعها نحو الحدائق نظرة الغيران

والطلع فى حلل الكمام كأنه حلل تفتق عن نحور غوان

والأرض تعجب كيف تضحك والحيا يبكى بدمع هائم الهملان [7]

---

(١) جاء مكان ما بين القوسين فى ب، ج: فى منزل أسد.

(٢) هذه الزيادة من ج.

(٣) فى الأصل: المدح.

(٤) فى ب: وتوجهت. وفى جـ: وتوجت.

(٥) فى ب: عام.

(٦) فى الأصل، جـ: خطوة.

(٧) فى الأصل: الهيمان.

حتى إذا افترت مباسم زهرها ... وبكى السحاب بمدمع هتان

ظلت حدائقها تعاتب جوها[1] ... فأجاب معتذرا بغير لسان

طفح السرور على حتى إنه ... من عظم ما قد سرنى أبكانى

فاصرف همومك بالربيع وفضله ... إن الربيع هو الشباب الثانى

أنى وقد صفت المياه وزخرفت ... جنات مصر وأشرف الهرمان

واخضر واديها وأحدق زهره ... والنيل فيه ككوثر عنان

وبه الجوار المنشآت كأنها ... أعلام بيد [2] أو فروع قنان

نهضت بأجنحة القلوع كأنها ... عند المسير تهم بالطيران

والماء يسرع فى التدفق كلما ... عجلت عليه يد النسيم الوانى 1

طورا كأسنمة القلاص وتارة ... متفتل [3] كأكارع الغزلان

حتى إذا كسر الخليج وقسمت ... أمواه لجته على الخلجان

ساوى البلاد كما تساوى فى الندا ... بين العباد مواهب السلطان

الناصر الملك الذى فى عصره ... شكر الظباء صنيعة السرحان

ملك إذا اكتحل الملوك بنوره ... خروا لهيبته إلى الأذقان

فإذا جرى بين البرية ذكره [4] ... تغنيه شهرته عن ابن فلان

---

1 أبيض يقق: شديد البياض ناصعه.

(١) فى الأصل: جونه. وفى ب: جره.

(٢) فى ب: تبدو. والبيد: جمع بيداء، وهى الفلاة.

(٣) فى ب: متفتك. وفى ج: تمتعك.

(٤) فى ب، ج: ذكر اسمه.

---

1 النسيم الوانى: الضعيف الهبوب.

من معشر خزنوا الثناء وقطعوا ... بفنا النضار جوائز الخزان

قوم يرون المن عند عطائهم ... شركا بوصف الواحد الديان [1]

الموقدو تحت المراجل للقرى ... فضلات ما حطوا [2] من المزان

إن أخرست فلذا العقير كلابهم ... نادوا الضيوف بألسن النيران

أسد روت [3] يوم الهياج أكفهم ... بدم الأسود ثعالب الخرصان

قصفوا [4] القنا 1 فى صدر كل مدرع ... والبيض فى الأبدان والإيدان

قد عز دين محمد بسميه ... وسما بنصرته على الأديان

ملك تعبدت [5] الملوك لأمره ... وكذاك دولة كل رب قران

وافى وقد عاد السماح وأهله ... رمما فكان له المسيح الثانى

فالطير تلجأ بالحصون لأنها ... (بنداه لم تأمن من الطوفان) [6]

(لا عيب فى نعماه إلا أنها) [7] ... يسلو الغريب بها عن الأوطان

شاهدته فشهدت لقمان الحجى ... ونظرت كسرى العدل فى الإيوان

ورأيت منه سماحة وفصاحة ... أعدى بفيضهما [8] يدى ولسانى

---

(١) فى ب، ج: المنان.

(٢) فى ج: خطوا.

(٣) فى ج: نوت.

(٤) فى ب: وضعوا.

(٥) فى ج: تقيدت.

(٦) هذا الشطر ليس فى ب، ج.

(٧) هذا الشطر ليس فى ب، ج. وقد جاء الشطر الثانى لهذا البيت فيهما مكان الشطر الثانى من البيت السابق.

(٨) فى الأصل: يغيضهما. وفى ب: مفيضهما.

---

1 القنا: جمع قناة، وهى الرمح الأجوف.

يا ذا الذى شغل الزمان بنفسه ... وأصم سمع طوارق الحدثان

لو يكتب اسمك [1] بالطوارق [2] والقنا ... أغنى عن التضراب [3] والقطعان

وكتيبة ضرب العجاج 1 رواتها ... من فوق أغمدة القنا المران

نصب [4] الغبار على الجياد مدارعا ... موصولة بمدارع الفرسان

ودم بأذيال الدروع كأنه ... حول الغدير شقائق النعمان

حتى إذا استعر [5] الوغى وتتبعت ... بيض الصفاح مكامن الأضغان

فعلت [6] دروعك عندهم [7] بسيوفهم ... فعل السراب بمهجة الظمآن

وبرزت تلقطك الصفوف [8] إليهم ... لقط الزناد سواطع النيران

بأقب 2 يعصى الكف ثم يطيعه ... فتراه بين تسرع وتوان

قد أكسبته (رياضه سواسه) [9] ... فتكاد تركضه بغير عنان

كالصقر فى الطيران والطاووس في ... الخطران والخطاف فى الروغان

---

(١) فى ج: اسم.
(٢) فى ب: بالطوام. وفى ج: بالصوام.
(٣) فى ج: التصراب.
(٤) فى ب، ج: نسج.
(٥) فى ب، ج: استقر.
(٦) فى ب، ج: فقلت.
(٧) فى ب: عددهم. وفى ج: درهم.
(٨) فى ج: السيوف.
(٩) فى ج: رياض سياسته.

---

1 العجاج: الغبار والدخان.
2 بأقب: الأقب جمع قب، وهو من اللجام الصعب العظيم.
3 حبك السماء: جمع حبيكة، وهى مسير النجم.

يرنو إلى حبك السماء 3 توهما أن المجرة حلبة الميدان

لو قيل عج نحو السماء تبادرا وطئت يداه دوائر الدبران [1]

لو قيل جز فوق السراط مسارعا لمشى عليه مشية السرطان

وفللت جد جدوعهم بصوارم ككراك نافرة عن الأجفان

ضلت فظنت فى مقارعة العدا إن ألغموه معاقد التيجان

صيرت هامات الكماة صوامعا وكواسر العقبان كالرهبان

يا ذا الذى خطب المديح سماحه فنداه قبل ندای قد لبانى

أقصيتنى بالجود ثم دعوتنى فنداك أبعدنى وإن أدنانى

ضاعفت برك لى ولو لم يولنى إلا القبول عطية لكفانى [2]

فنأيت عنك ولست أول حازم خاف النزول بمهبط الطوفان

علمى بصرف الدهر أخلى معهدى منى وصرف فى البلاد عنانى

ولربما طلب الحريص زيادة فغدت مودية إلى النقصان

فلئن رحلت فقد تركت بدائعا غصبت [3] فصول الحكم من لقمان

وخريدة هى فى الجمال فريدة فهى الغريبة وهى فى الأوطان

معتادة تهب الخليل صداقها فخرا على الأكفاء والأقران

لا عيب فيها وهو شاهد حسنها إلا تبرجها بكل مكان

قلت وإن جلت صنائع لفظها لكم وإن نطقت بسحر بيان

---

(١) فى ب، ج: الديران. والدبران: خمسة كواكب من الثور، يقال: إنها سنامه، وهو من منازل القمر. وقيل: نجم بين الثريا والجوزاء.

(٢) فى الأصل: الكفان.

(٣) فى ب: غضبت. وى ج: عصبت.

فجميل صنعكم أجل صنائعا وبديع فضلكم أدق معان

وقال مهذب [1] الدين أبو نصر محمد بن إبراهيم الحلبى المعروف بابن البرهان النجم [2] يخاطب زين الدين يوم تخليق المقياس:

أمقياس مصر أنت فى مصر كعبة تحج لك الأملاك والخلفاء
وللخلق إن خلقت يوم مسرة يكون به للعالمين هناء [3]
وما النيل إلا من مواهب ربنا يصرفه فى الأرض كيف يشاء
دع الكبر واعلم أن راحة أحمد بنيل الورى مالا ونيلك ماء
وإنك تبدى الستر فى العام مرة وكم عمنا ستر له ووفاء

وقال شهاب الدين بن أبى حجلة يمدح الأمير يلبغا يوم كسر الخليج:

أتانى من نحو الحبيب بشير فكدت إليه بالسرور أطير
حبيب إذا ما لاح دينار خده فإنى إليه ما حييت فقير
أقول لمن أمسى عليه يلومنى ملامك فى الظبى الغرير [4] غرور
أيخفى اشتهارى فى هواه ولحظه إذا ما رنا سيف على شهير
لئن بات دمعى من تجنيه مطلقا فقلبى المعنى فى هواه أسير
وبى من له من ورد خديه دائما ودمعى بمصر روضة وغدير
كسرت دموعى كالخليج الذى به جبرت وقلب الماء فيه كسير
أرى الراية البيضا على النيل بالوفا إذا لاح لى قلع عليه كبير

---

(١) فى ب، ج: شهاب.
(٢) فى ب، ج: المنجم.
(٣) فى ج: ضياء.
(٤) فى ب: العزيز. وفى ج: الغذير.
(٥) فى ب، ج: ورخص مصرا فى غلا السعر.

(وحصن مصرا فى علا السعد)[٥]عندما غدا وله حول المنازل سور

وبات [١] به نحو البلاد مفرقا [٢] وبات [٣] لميت القلع فيه نشور

ودارت سواقى مصر فى كل روضة على مثلها كان الخصيب يدور

وبشر طير الماء فيه غرابة فكاد بأرياش القلاع يطير

نعم طار فوق الماء وهو مخلق وعم البرايا فرحة وسرور

أرى النيل سلطان المياه ويلبغا عليه بمصر حاكم وأمير

كأن جناحى عينه عندما سرى إليه بزاة 1 حوله وصقور

كأن حباب الماء فيه كواكب تضىء فتبدو تارة وتغور [٤]

كأن لزحف الماء فيه كتائب لعسكرها الجرار فيه عبور

كأن شقيق الروض حول أقاحه 2 خدود على وجه الربى وثغور

كأن قدود الغيد فى الروض حوله غصون ومن فوق الغصون بدور

كأن محيا يلبغا عندما سرى به الفلك بدر فى السماء منير

عجبت لفلك حل فيه بجوده وقد صار تحت البحر كيف يسير

هو البر إلا أن يمناه بالندا أصابعها للواردين بحور

تلقته بالمقياس عند حلوله أصابع تومى بالدعا وتشير

وعاد إلى كسر الخليج فبادرت لرؤياه ولدان هناك وحور

---

(١) فى ب، ج: ومات.
(٢) فى الأصل: مغرقا.
(٣) فى ب: ومات.
(٤) فى ب: وتفور.

---

1 بزاة: جمع بازى، وهو نوع من الصقور الصغيرة أو المتوسطة الحجم.
2 أقاحه: الأقاح جمع الأقحوان: وهو نبت زهره أصفر أو أبيض، وأعلى ورقه كأسنان المنشار.

وصفقت الأمواج حتى تراقصت مراكب فيها فى الصدور صدور
وغنت على العيدان ورق حمائم لأصواتها مثل الغدير هدير
ولاح حباب الماء فيه كأنه نجوم على قطب السرور تدور
ونفر عنى الهم صوت نفيره فما راعنى ممن هويت نفور
ولا ملت فى مدح الأمير إلى الهوى لأنى بما يهوى الأمير خبير
لئن كان يهوى العدل فينا فجوده على ماله للمادحين بحور [1]
وإن قل فى حسن الوفاء نظيره فإحسانه فى العالمين كثير
وإن طال فى يوم الكريهة باعه فعمر عدو الدين منه [2] قصير
أحرر مدحى فى علاه وقصره من الفرش فيه جنة وحرير
فلا زال فى دور الهوى [3] ومديحه لأبياته فوق السماء قصور

وقال ابن أبى حجلة أيضا:

لما تزايد نيل مصر وأترعت منه الحياض وللروابى طفقا
نشروا القلوع وبشروا بوفائه فالراية البيضا عليه بالوفا

وقال البدر البشتكى:

جرى النيل يحكى ناظر الخاص فى الوفا وأطراه بعض الناس والفرق لن يخفي
فقلت لقلبى دع لهم وصف نيلهم وحسبك إبراهيم فهو الذى وفي

وقال البدر البشتكى يمدح قاضى القضاة برهان [4] الدين بن جماعة عند كسر

(١) فى ج: يجور.
(٢) هذه اللفظة ليست فى ج.
(٣) فى الأصل: الهنا.
(٤) فى ج: بدر.

الخليج سنة ٧٧٨:

رعى الله الليالى الذاهبات ودهرا قد تقضى ذا هبات
نعم وسقى وحيا لى ندامى تروع بالكؤوس المترعات
وشمس الراح بالراحات تجلو حبابا كالنجوم النيرات
ومن شعرى أهيم بكل واد فتتبعنى الأحبة كالغوات
ليال من بدور [(١)] مقمرات وأيام بشمس [(٢)] مشرقات
وفضى السوالف حين غنى غنينا بالخدود المذهبات
(تكلمنا لواحظنا بما لا نراه فى الصحاح من اللغات)[(٣)]
تحاكيه الغزالة فى سناها فيخجلها بحسن الالتفات
إذا ما قال لى خذ شمس كاسى أقول مبادرا يا بدر هات
قطعناها بوصل من حبيب على رغم العواذل والوشاة
ليال كاللآلئ فى اتساق فسقى عصرها ابن المعصرات
وإلا مرسلات من دموعى فروحى بعدها فى النازعات
ليالى مصر قد طالت وكانت قصارا بالحسان القاصرات
ألا يا حبذا مصر وطرفي بها قد جال فى مستنزهات
وصحبى بالمراكب فى نعيم بمنحدراتها والمصعدات
وخضنا فى حديث النيل لكن مزجناه بأوصاف الفرات
فقلت وقد سرت عنى همومى بأيام الوفاء الوافيات
عجبت لنيل مصر حين وفي على بخل الليالى الغادرات

---

(١) فى ب، ج: بدورى.
(٢) فى ب، ج: بشمسى.
(٣) هذا البيت ليس فى ج.

وزاد تعجبى فيه إلى أن رأيت جواره قاضى القضاة

إمام قد تواتر من قديم حديث عطائه عند الثقات

تفرد فى عبادات وأضحت صلات البر منه كالصلاة [1]

فإن قربت جنايزنا بفقر يرينا باب إحياء الموات

وإن عظمت جنايات الليالى يقابلها بأبواب الديات

له نحو العلا أبواب عطف وبذل فيه تأكيد الصلات

وذو خطب أزالت كل خطب وكانت للمدائح خاطبات

نعم ومصنفات فى علوم علت وحوت جميع الواقعات

تصانيف سمت وهدت وضاءت فقلنا: كالنجوم الزاهرات

له قلم إذا ضعفت نفوس أتاها بالدواء من الدواة

وإن نامت حظوظ المدح يوما ينبهها بهبات الهبات

وذو همم إذا الأيام جنت تراها [2] فى المعالى راقيات

وأحلام بحسن الوصف سارت فقل فى الراسيات الساريات

أآل جماعة جمعت لديكم معان للعلا كالجامعات

مناقبكم على الأيام تبقى وإن غبتم فها هى شاهدات[3]

لكم نشر طوى ندا وعودا وعرف مرخص للغاليات [4]

نعم لجماعة برهان فضل تفى [5] وفى الندا بالمغلوات

---

(١) فى الأصل: كالصلات.

(٢) فى ج: يراها.

(٣) فى البيت إقواء.

(٤) فى الأصل: للطاليات.

(٥) فى ب: نقى. وفى ج: نفى.

فيا لله كم أغنى فقيرا ... وروى من نفوس صاديات
وزاد على نوال النيل نيلا ... وأعطى المال عفوا للعفاة
أأزكى الناس فى عمل وعلم ... وفى بذل وفى نفس وذات
لعدلك أشتكى جور الليالى ... فقد صارت بفضلى كافرات
وأنهى أننى رجل فقير ... لما قررت فى باب الزكاة
وأيام الوفا أيام كسر ... فجد لى بالأيادى الجابرات
رأيتك راغبا فى كل فضل ... فجئتك بالمعانى المفردات
وكررت المدائح فيك حتى ... غدت أحلى من القطر النبات
فلا زالت ديارك عامرات ... لنا وديار ضدك غامرات
ووفاك الوفا بالبشر بدءا ... وعاد على الأعادى بالوفاة
تقاسمنا عموم المدح لما ... خصصنا بالمعانى المبدعات
فكان على تحسين المبادى ... وكان عليك حسن الخاتمات

وقال الأديب شمس الدين النواجى يمدح القاضى كاتب السر كمال الدين بن البارزى، ويهنئه بكسر الخليج سنة بضع وأربعين وثمانمائة:

لطلعتك الغراء يعنو 1 سنا البدر ... نعوذ كمالا منك بالشمس والفجر
أيا سيدا جادت مياه وأمطرت ... سحائب جود من أناملها العشر
ويا عنصر الفضل الذى طاب أصله ... فأخلف فرعا بالندا يانع الزهر
لك الله خيرا كم همى طيب (١) كفه ... إذا ضنت (٢) السحب الهوامع بالنزر

(١) فى ب، ج: غيث.
(٢) فى ب، ج: صفت.

1 يعنو: يخضع ويذل.

محط رحال الطالبين وملجأ الـ ـعفاة وأمن الخائفين من الفقر
له خبر فى الجود سلسله الندا عن المزن عن صوب الغمام عن القطر
ومنطقه جزل المعانى بديعها مصون عن السفساف والفحش والهجر
لو الفاضل القاضى رأى حسن سبله وعاين ما يلقيه فى الطرس 1 من در
لألقى مقاليد البلاغة ناشرا له علم الإنشاء فى النظم والنثر
تبارك من أخلى من الشر قلبه وأودعه أمرا عظيما من السر
أسيدنا قاضى القضاة ومن غدا كمال محياه يفوق سنا البدر
ويا كاتب السر الذى سار ذكره مسير بدور التم 2 والأنجم الزهر
يمينك فيها اليمن والأمن والمنى ويسراك خصت فى البرية باليسر
وكم قد روينا عن عواليك سندا بيوم نوال عن عطاء وعن بشر
تعلم هذا النيل من خلقك الوفا فدقت له تلك البشائر فى مصر
وأعرب عن معنى صفاتك فانبرى بساحل موج البحر بالشيم الغر
وكان عراه قبل ذاك توقف وأودى به فرط [1] احتراق من البحر
وأمسى بكم صبا وأبدى ترفقا وأجرى عيونا فى ربى عيشك النضر
ومذ زرتموه بالهنا طاب قلبه وأضحى قرير العين منشرح الصدر
وها هو قد وافى وأقبل مسرعا على رأسه طوعا لخدمتكم يجرى
وألقى على الأعتاب فى الحال نفسه وأيقن بعد الكسر عندك [2] بالجبر

---

(١) فى ب، ج: فرد.
(٢) هذه اللفظة ليست فى ج.
(٣) فى ب، ج: للندا.

---

1 الطرس: الصحيفة أو الكتاب.
2 التم: التام.

وآوى إليك اليوم يا بر بالندا [٣] ... ولا عجبا للبحر يأوى إلى البر

وإن كان بحرا أنت لا شك جسره ... فلا بد للبحر الخضيم من الجسر

يشير إليكم بالأصابع عندما ... يزيد ويمشى من ظلالك فى ستر

وقرت عيون الزهر بالقرب فرحة ... فمن أجل ذا يلقاك مبتسم الثغر

بكم جبر الله الأنام وخصكم ... بروضة فضل جادها وابل القطر

وزادكم فى العلم والجسم بسطة ... لمقياسها بالمشتهى منتهى الشكر

تهن بعيد النحر وانحر به العدا ... وعش ألف عام ما مضى الحال والأمر

وكم سقت أنعاما به وبذلت من ... سوابغ أنعام تجل عن الحصر

وقلدتنى[١] فيه بجدواك أنعما ... وأحسن ما تبدو القلائد فى النحر

وعش وابق واسلم واغن واغنم وجد وسد ... ودم وارق واسعد بالهناء مدى الدهر

ونل فوق هام الأنجم الغر رفعة ... لنروى حديث الفضل منك عن الزهرى

ولا زال رب الملك يوليك أمره ... ويكلؤك الرحمن فى السر والجهر

---

(١) فى الأصل: وقدرتى. وفى ج: وقدرتنى.